

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الرعد

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنية في قول الكلبي ومقاتل.
وقال ابن عباس وقتادة: مدنية إلا آيتين منها نزلتا بمكة؛ وهما قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ
قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ [إلى آخرهما] ^(١).

[١] ﴿الْمَرْءُ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿الْمَرْءُ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ تقدم القول فيها. ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾
يعني وهذا القرآن الذي أنزل إليك. ﴿مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ لا كما يقول المشركون: إنك
تأتي به من تلقاء نفسك؛ فاعتصم به، وأعمل بما فيه. قال مقاتل: نزلت حين قال
المشركون: إن محمداً أتى بالقرآن من تلقاء نفسه. ﴿وَالَّذِي﴾ في موضع رفع عطفًا على
«آيَاتُ» أو على الابتداء، و«الْحَقُّ» خبره؛ ويجوز أن يكون موضعه جراً على تقدير:
وآيات الذي أنزل إليك، وارتفاع «الحق» على هذا على إضمار مبتدأ، تقديره: ذلك
الحق؛ كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ﴾ ^(٢) يعني ذلك الحق. قال الفراء: وإن
شئت جعلت «الَّذِي» خفصاً نعتاً للكتاب، وإن كانت فيه الواو كما يقال: أانا هذا
الكتاب عن أبي حفص والفاروق؛ ومنه قول الشاعر:

إلى الملكِ القَرَمِ وأبنِ الهَمَامِ وَلَيْتِ الْكَتَيْبَةَ فِي الْمُرْدَحِمِ ^(٣)

يريد: إلى الملك القَرَمِ بن الهمام، ليت الكتيبة. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

(١) الزيادة من تفسير البحر.

(٢) راجع ١٦٢/٢ فما بعد.

(٣) القرم (بفتح القاف): السيد؛ والكتيبة: الجيش، والمزدحم: محل الازدحام.

[٢] ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ الآية. لما بين تعالى أن القرآن حق، بين أن من أنزله قادر على الكمال؛ فانظروا في مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته؛ وقد تقدّم هذا المعنى. وفي قوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ قولان: أحدهما - أنها مرفوعة بغير عمد ترونها؛ قاله قتادة وإياس بن معاوية وغيرهما. الثاني - لها عمد، ولكننا لا نراها؛ قال ابن عباس: لها عمد على جبل قاف؛ ويمكن أن يقال على هذا القول: العمد قدرته التي يُمسك بها السموات والأرض، وهي غير مرئية لنا؛ ذكره الزجاج. وقال ابن عباس أيضاً: هي توحيد المؤمن. أعمدت السماء حين كادت تنفطر من كفر الكافر؛ ذكره الغزنوي. والعمد جمع عمود؛ قال النابغة:

وَحَيْسَ الْجِنَّ إِنِّي قَدْ أَذْنْتُ لَهُمْ يَنْتُونَ تَذْمُرَ بِالصَّفَّاحِ وَالْعَمَدِ^(١)

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ تقدّم الكلام فيه^(٢). ﴿وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي ذلّلهما لمنافع خلقه ومصالح عبادته؛ وكل مخلوق مُدَلّل للخالق. ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى وقت معلوم؛ وهو فناء الدنيا، وقيام الساعة التي عندها تُكوّر الشمس، ويُخسف القمر، وتتكدر النجوم، وتنتثر الكواكب. وقال ابن عباس: أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التي ينتهيان إليها لا يجاوزانها. وقيل: معنى الأجل المسمى أن القمر يقطع فلّكه في شهر، والشمس في سنة. ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي يصرفه على ما يريد. ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي يُبينها؛ أي من قدر على هذه الأشياء يقدر على الإعادة؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

(١) ويروى: وخبر الجن. وخيس: ذل؛ وتدمر: بلد بالشام بناها سيدنا سليمان عليه السلام. والصفاح حجارة عراض رفاق. وعمد: جمع عمود.

(٢) راجع ٢١٩/٧.

[٣] ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغِشِّي أَلْيَلُ النَّهَارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ لما بين آيات السموات بين آيات الأرض؛ أي بسط الأرض طولاً وعرضاً. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي جبلاً ثوابت؛ واحدها راسية؛ لأن الأرض ترسوبها، أي تثبت؛ والإرساء الثبوت؛ قال عنترة:

فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لِّذَلِكَ حُرَّةً تَرُسُو إِذَا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطَلَّعُ^(١)

وقال جميل:

أَحِبُّهَا وَالَّذِي أَرَسَى قَوَاعِدَهُ حُبًّا إِذَا ظَهَرَتْ آيَاتُهُ بَطَنَّا

وقال ابن عباس وعطاء: أول جبل وُضع على الأرض أبو قبيس^(٢).

مسألة - في هذه الآية ردّ على من زعم أن الأرض كالكرة، وردّ على من زعم أن الأرض تهوي أبوابها عليها؛ وزعم ابن الرّاوندي أن تحت الأرض جسماً صعباً كالريّج الصّعب؛ وهي منحدره فاعتدل الهاوي والصعادي في الجرم والقوة فتوافقا. وزعم آخرون أن الأرض مركبة من جسمين، أحدهما منحدر، والآخر مصعد، فاعتدلا، فلذلك وقفت. والذي عليه المسلمون وأهل الكتاب القول بوقوف الأرض وسكونها ومدها، وأن حركتها إنما تكون في العادة بزلزلة تصيبها. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْهَارًا﴾ أي مياهاً جارية في الأرض، فيها منافع الخلق. ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ بمعنى صنفين. قال أبو عبيدة: الزوج واحد، ويكون اثنين. الفراء: يعني بالزوجين ها هنا الذكر والأنثى؛ وهذا خلاف

(١) قبل البيت:

وعرفت أن منيتي إن تأنيتي لا ينجني منها الفرار الأسرع

(٢) أبو قبيس: جبل مشرف على مسجد مكة.

النص. وقيل: معنى «زَوْجَيْنِ» نوعان، كالحُلُو والحامض، والرطب واليابس، والأبيض والأسود، والصغير والكبير. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي دلالات وعلامات ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

[٤] ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضْلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ في الكلام حذف؛ المعنى: وفي الأرض قطع متجاورات وغير متجاورات؛ كما قال: ﴿سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾^(١) والمعنى: وتقيكم البرد، ثم حذف لعلم السامع. والمتجاورات المدن وما كان عامراً، وغير متجاورات الصحارى وما كان غير عامر.

الثانية - قوله تعالى: ﴿مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ أي قُرَى متدانيات، ترابها واحد، وماؤها واحد، وفيها زروع وجنات، ثم تتفاوت في الثمار والثمار؛ فيكون البعض حُلُوًّا، والبعض حامضاً؛ والغصن الواحد من الشجرة قد يختلف الثمر فيه من الصغير والكبير واللون والمطعم، وإن أنبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد؛ وفي هذا أدل دليل على وحدانيته وعظم صمديته، والإرشاد لمن ضلَّ عن معرفته؛ فإنه نَبَّه سبحانه بقوله: ﴿تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته، وأنه مقدور بقدرته؛ وهذا أدل دليل على بطلان القول بالطبع؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لما وقع الاختلاف. وقيل: وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين البقاع؛ فمن تربة عذبة، ومن تربة سبخة مع تجاورهما؛ وهذا أيضاً من دلالات كمال قدرته؛ جلَّ وعزَّ تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علُوًّا كبيراً.

الثالثة - ذهبت الكفرة - لعنهم الله - إلى أن كل حادث يحدث بنفسه لا من صانع؛ وادّعوا ذلك في الثمار الخارجة من الأشجار، وقد أقروا بحدوثها، وأنكروا محدثها، وأنكروا الأعراض. وقالت فرقة: بحدوث الثمار لا من صانع، وأثبتوا للأعراض فاعلاً؛ والدليل على أن الحادث لا بدّ له من مُحدث أنه يحدث في وقت، ويحدث ما هو من جنسه في وقت آخر؛ فلو كان حدوثه في وقته لاختصاصه به لوجب أن يحدث في وقته كل ما هو من جنسه؛ وإذا بطل اختصاصه بوقته صح أن اختصاصه به لأجل مُخصّص خصّصه به، ولولا تخصيصه إياه به لم يكن حدوثه في وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده؛ وأستيفاء هذا في علم الكلام.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَغْنَابٍ﴾ قرأ الحسن «وَجَنَّاتٍ» بكسر التاء، على التقدير: وجعل فيها جنات، فهو محمول على قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيً﴾. ويجوز أن تكون مجرورة على الحمل على «كل» التقدير: ومن كل الثمرات، ومن جنات. الباقون: «جَنَّاتٌ» بالرفع على تقدير: وبينهما جنات. ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ﴾ بالرفع. ابن كثير وأبو عمرو وحفص عطفاً على الجنات؛ أي على تقدير: وفي الأرض زرع ونخيل. وخفضها الباقون نَسَقاً على الأغاب؛ فيكون الزرع والنخيل من الجَنَّات؛ ويجوز أن يكون معطوفاً على «كُلِّ» حسب ما تقدّم في «وَجَنَّاتٍ». وقرأ مجاهد والسلمي وغيرهما «صُنَوَانٌ» بضم الصاد، الباقون بالكسر؛ وهما لغتان؛ وهما جمع صِنُو، وهي النَّخْلَات والنَّخْلَتَان، يجمعهنَّ أصلٌ واحد، وتشعب منه رءوس فتصير نخيلاً؛ نظيرها قِنَوَان، واحدها قِنُو وروى أبو إسحاق عن البراء قال: الصُّنَوَان المجتمع، وغير الصُّنَوَان المتفرق؛ النحاس: وكذلك هو في اللغة؛ يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صِنَوَان. والصُّنُو المِثْل؛ ومنه قول النبي ﷺ: «عَمَّ الرَّجُلُ صِنُو أَبِيهِ». ولا فرق فيها بين التثنية والجمع، ولا بالأعراب؛ فتعرب نون الجمع، وتكسر نون التثنية؛ قال الشاعر:

العلم والحلم خُلَّتَا كَرَمَ للمرء زينٌ إذا هُما اجْتَمَعَا

صِنَوَانٍ لَا يُسْتَتَمُ حُسْنُهُمَا إِلَّا بِجَمْعِ ذَا وَذَاكَ مَعَا

الخامسة - قوله تعالى: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ كصالح بني آدم وخبيثهم، أبوهم واحد؛ قاله النحاس والبخاري. وقرأ عاصم وابن عامر: «يُسْقَى» بالياء، أي يُسقى ذلك كله. وقرأ الباقون بالتاء، لقوله: «جَنَّاتٌ» واختاره أبو حاتم وأبو عبيدة؛ قال أبو عمرو: والتأنيث أحسن؛ لقوله: ﴿وَنَفْضُلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ ولم يقل بعضه. وقرأ حمزة والكسائي وغيرهما «وَيُفْضَلُ» بالياء ردأً على قوله: «يُدَبَّرُ الْأَمْرُ» و«يُفْضَلُ» و«يُغْشَى» الباقون بالنون على معنى: ونحن نفضل. وروى جابر بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ يقول لعلي رضي الله عنه: «الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة واحدة» ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَّتَجَاوِرَاتٌ﴾ حتى بلغ قوله: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ و«الأكُل» الثمر. قال ابن عباس: يعني الحلو والحامض والفارسي^(١) والدَّقْل^(٢). وروي مرفوعاً من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿وَنَفْضُلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ قال: «الفارسي والدَّقْل والحلو والحامض» ذكره الثعلبي. قال الحسن: المراد بهذه الآية المثل؛ ضربه الله تعالى لبني آدم، أصلهم واحد، وهم مختلفون في الخير والشر والإيمان والكفر، كاختلاف الثمار التي تسقى بماء واحد؛ ومنه قول الشاعر:

النَّاسُ كَالنَّبْتِ وَالنَّبْتُ أَلْوَانُ مِنْهَا شَجَرُ الصَّنَدَلِ وَالْكَافُورِ وَالْبَانِ

ومنها شجر ينضج طول الدهر قطران

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي لعلامات لمن كان له قلب يفهم عن الله تعالى.

[٥] ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَمْ نَأْتِي خَلْقٍ حَدِيدٍ ۖ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ ۖ فِي آَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

(١) التمر الفارسي: نوع جيد نسبة إلى فارس.

(٢) الدقل: رديء التمر.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم الصادق الأمين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث؛ والله تعالى لا يتعجب، ولا يجوز عليه التعجب؛ لأنه تغيّر النفس بما تخفى أسبابه^(١)؛ وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيّه والمؤمنون. وقيل المعنى: أي إن عجبت يا محمد من إنكارهم الإعادة مع إقرارهم بأني خالق السموات والأرض والثمار المختلفة من الأرض الواحدة فقولهم عجب يعجب منه الخلق؛ لأن الإعادة في معنى الابتداء. وقيل: الآية في منكري الصانع؛ أي إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بد له من مغير فهو محل التعجب؛ ونظم الآية يدل على الأول والثاني؛ لقوله: ﴿أَنْذَأُكُمْ تَرَابًا﴾ أي أنبعث إذا كنا تراباً؟! ﴿أَنْتَأُكُمْ خَلْقٌ جَدِيدٌ﴾ وقرئ «إِنَّا». و ﴿الْأَغْلَالُ﴾ جمع غل؛ وهو طوق تشد به اليد إلى العنق، أي يغترون يوم القيامة؛ بدليل قوله: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾^(٢) إلى قوله: ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾. وقيل: الأغلال أعمالهم السيئة التي هي لازمة لهم.

[٦] ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظَلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٣).

[٧] ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي لفرط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العذاب؛ قيل هو قولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾^(٥). قال قتادة: طلبوا العقوبة قبل العافية؛ وقد حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة. وقيل: «قَبْلَ الْحَسَنَةِ» أي قبل الإيمان الذي يرجى به الأمان والحسنات. و «الْمَثَلَاتُ» العقوبات؛ الواحدة مثلة. وروي عن الأعمش أنه قرأ «الْمَثَلَاتُ» بضم الميم وإسكان التاء؛ وهذا جمع مثلة، ويجوز

(١) في حـ الجمل عن القرطبي: العجب تغير النفس بما تخفى أسبابه وذلك في حق الله تعالى محال.

(٢) راجع ٣٣٢/١٥. (٣) راجع ٣٩٨/٧.

«الْمَثَلَاتِ» تبدل من الضمة فتحة لثقلها، وقيل: يُؤْتَى بالفتحة عوضاً من الهاء. وروى عن الأعمش أنه قرأ «الْمَثَلَاتِ» بفتح الميم وإسكان الشاء؛ فهذا جمع مُثْلَةٌ، ثم حَذَف الضمة لثقلها؛ ذكره جميعه النحاس رحمه الله. وعلى قراءة الجماعة واحده مُثْلَةٌ، نحو صَدُوقَةٍ [وَصُدُوقَةٍ]^(١)؛ وتميم تضم الشاء والميم جميعاً، واحدها على لغتهم مُثْلَةٌ، بضم الميم وجزم الشاء؛ مثل: غُرْفَةٌ وَغُرُفَاتٍ؛ والفعل منه مَثَلْتُ به أَمْثَلُ مَثَلًا، بفتح الميم وسكون الشاء. «وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ» أي لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا، وعن المذنبين إذا تابوا. وقال ابن عباس: أرجى آية في كتاب الله تعالى «وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ». «وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ» إذا أصرّوا على الكفر. وروى حمّاد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيّب قال: لما نزلت: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ» قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه لما هنا أحدٌ أَعِيشَ ولولا عقابه ووعيده وعذابه لَأَتَكَلَّ كل أحد».

قوله تعالى: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا» أي هلا «أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ». لما اقترحوا الآيات وطلبوها قال الله تعالى لنبيه ﷺ: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ» أي مُعَلِّم. «وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» أي نبي يدعوهم إلى الله. وقيل: الهادي الله؛ أي عليك الإنذار، والله هادي كل قوم إن أراد هدايتهم.

[٨] «اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾».

[٩] «عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾».

فيه ثمان مسائل:

الأولى - قوله تعالى: «اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ» أي من ذكر وأنثى، صبيح وقبيح، صالح وطالح؛ وقد تقدّم في سورة «الأنعام»^(٢) أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب وحده

(١) من أ.

(٢) راجع ١/٧ فما بعد.

لا شريك له؛ وذكرنا هناك حديث البخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس» الحديث. وفيه «لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله». وأختلف العلماء في تأويل قوله: «وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ» فقال قتادة: المعنى ما تُسْقِط قبل التسعة الأشهر، وما تزداد فوق التسعة؛ وكذلك قال ابن عباس. وقال مجاهد: إذا حاضت المرأة في حملها كان ذلك نقصاناً في ولدها؛ فإن زادت على التسعة كان تماماً لما نقص؛ وعنه: الغيض ما تنقصه الأرحام من الدم، والزيادة ما تزداد منه. وقيل: الغيض والزيادة يرجعان إلى الولد، كنقصان إصبع أو غيرها، وزيادة إصبع أو غيرها. وقيل: الغيض انقطاع دم الحيض. «وَمَا تَزْدَادُ» بدم النفاس بعد الوضع.

الثانية - في هذه الآية دليل على أن الحامل تحيض؛ وهو مذهب مالك والشافعي في أحد قوليه. وقال عطاء والشعبي وغيرهما: لا تحيض؛ وبه قال أبو حنيفة؛ ودليله الآية. قال ابن عباس في تأويلها: إنه حيض الحبالى، وكذلك روي عن عكرمة ومجاهد؛ وهو قول عائشة، وأنها كانت تفتي النساء الحوامل إذا حُضْنَ أن يتركن الصلاة؛ والصحابة إذ ذاك متوافرون، ولم ينكر منهم أحد عليها، فصار كالإجماع؛ قاله^(١) ابن القصار. وذكر أن رجلين تنازعا ولداً، فترافعا إلى عمر رضي الله عنه فعرضه على القافة، فألحقه القافة بهما، فعلاه عمر بالدرة، وسأل نسوة من قریش فقال: أنظرُن ما شأن هذا الولد؟ فقلن: إن الأوّل خلا بها وخلاها، فحاضت على الحمل، فظنّت أن عدّتها انقضت؛ فدخل بها الثاني، فانتعش الولد بماء الثاني؛ فقال عمر: الله أكبر! وألحقه بالأول، ولم يقل إن الحامل لا تحيض، ولا قال ذلك أحد من الصحابة؛ فدلّ أنه إجماع، والله أعلم. احتج المخالف بأن قال لو كان الحامل تحيض، وكان ما تراه المرأة من الدم حيضاً لما صحّ استبراء الأمة بحيض؛ وهو إجماع. وروي عن مالك في كتاب محمد ما يقتضي أنه ليس بحيض.

الثالثة - في هذه الآية دليل على أن الحامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر وأكثر، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر، وأن عبد الملك بن مروان ولد لسته أشهر.

(١) في الطبعة الأولى: قاله ابن عباس قال ابن القصار. وليست عبارة الأصول كذلك لهذا حذفناها.

الرابعة - وهذه الستة الأشهر هي بالأهلة كسائر أشهر الشريعة؛ ولذلك قد روي في المذهب عن بعض أصحاب مالك، وأظنه في كتاب ابن حارث أنه إن نقص عن الأشهر الستة ثلاثة أيام فإن الولد يلحق لعله نقص الأشهر وزيادتها؛ حكاه ابن عطية.

الخامسة - وأختلف العلماء في أكثر الحمل؛ فروى ابن جريج عن جميلة بنت سعد عن عائشة قالت: لا يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحول ظل المغزل؛ ذكره الدارقطني. وقالت جميلة بنت سعد - أخت عبيد بن سعد، وعن الليث بن سعد -: إن أكثره ثلاث سنين. وعن الشافعي أربع سنين؛ وروي عن مالك في إحدى روايته، والمشهور عنه خمس سنين؛ وروي عنه لا حد له، ولو زاد على العشرة الأعوام؛ وهي الرواية الثالثة عنه. وعن الزهري ست وسبع. قال أبو عمر: ومن الصحابة من يجعله إلى سبع؛ والشافعي؛ مدة الغاية منها أربع سنين. والكوفيون يقولون: ستان لا غير. ومحمد بن عبد الحكم يقول: سنة لا أكثر. وداود يقول: تسعة أشهر، لا يكون عنده حمل أكثر منها. قال أبو عمر: وهذه مسألة لا أصل لها إلا الاجتهاد، والرد إلى ما عُرِف من أمر النساء وبالله التوفيق. روى الدارقطني عن الوليد بن مسلم قال: قلت لمالك بن أنس إني حدثت عن عائشة أنها قالت: لا تزيد المرأة في حملها على سنتين قدر ظل المغزل، فقال: سبحان الله! من يقول هذا؟! هذه جارتنا امرأة محمد بن عجلان، تحمل وتضع في أربع سنين، امرأة صدق، وزوجها رجل صدق؛ حملت ثلاثة أبطن في اثنتي عشرة سنة، تحمل كل بطن أربع سنين. وذكره عن^(١) المبارك ابن مجاهد قال: مشهور عندنا كانت امرأة محمد بن عجلان تحمل وتضع في أربع سنين، وكانت تسمى حاملة الفيل. وروي أيضاً قال: بينما مالك بن دينار يوماً جالس إذ جاءه رجل فقال: يا أبا يحيى! أدع لامرأة حبلى منذ أربع سنين قد أصبحت في كرب شديد؛ فغضب مالك وأطبق المصحف ثم قال: ما يرى هؤلاء القوم إلا أنا أنبياء! ثم قرأ، ثم دعا، ثم قال: اللهم هذه المرأة إن كان في بطنها ريح فأخرجه عنها الساعة، وإن كان في بطنها جارية فأبدلها [بها]^(٢) غلاماً، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك

(١) من أ. وفي و: ابن المبارك.

أم الكتاب، ورفع مالك يده، ورفع الناس أيديهم، وجاء الرسول إلى الرجل فقال: أدرك امرأتك، فذهب الرجل؛ فما حطَّ مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسجد على رقبته غلام جَعْدَ قَطَطٌ^(١)، أبْن أربع سنين، قد استوت أسنانه، ما قُطِعَتْ سراره^(٢)؛ ورؤي أيضاً أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين! إنني غبت عن امرأتي ستين فجئت وهي حبلى؛ فشاور عمر الناس في رجمها، فقال معاذ بن جبل: يا أمير المؤمنين! إن كان لك عليها سبيل فليس لك على ما في بطنها سبيل؛ فتركها حتى تضع، فتركها، فوضعت غلاماً قد خرجت ثنيتاه؛ فعرف الرجل الشبه فقال: ابني ورب الكعبة!؛ فقال عمر: عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ؛ لولا معاذ لهلك عمر. وقال الضحَّاك: وضعتني أمي وقد حملت بي في بطنها ستين، فولدتني وقد خرجت سني. ويذكر عن مالك أنه حمل به في بطن أمه ستين، وقيل: ثلاث سنين. ويقال: إن محمد بن عجلان مكث في بطن أمه ثلاث سنين، فماتت به وهو يضطرب اضطراباً شديداً، فشقَّ بطنها وأخرج وقد نبتت أسنانه. وقال حماد بن سلمة؛ إنما سمي هَرَم بن حيان هَرَمًا لأنه بقي في بطن أمه أربع سنين. وذكر الغزنوي أن الضحَّاك وُلد لستين، وقد طلعت سِنّه فسُمي ضحَّاكاً. عبَّاد بن العوام: ولدت جارة لنا لأربع سنين غلاماً شعره إلى منكبيه، فمرَّ به طير فقال: كش.

السادسة - قال ابن خُوَيْرِزٍ مَنَاد: أقل الحيض والنفاس وأكثره وأقل الحمل وأكثره مأخوذ من طريق الاجتهاد؛ لأن علم ذلك استأثر الله به، فلا يجوز أن يحكم في شيء منه إلا بقَدْر ما أظهره لنا، ووُجد ظاهراً في النساء نادراً أو معتاداً؛ ولَمَّا وجدنا امرأة قد حملت أربع سنين وخمس سنين حكمنا بذلك، والنفاس والحيض لَمَّا لم نجد فيه أمراً مستقراً رجعنا فيه إلى ما يوجد في النادر منهن^(٣).

السابعة - قال ابن العربي: نقل بعض المتساهلين من المالكيين أن أكثر الحمل تسعة أشهر؛ وهذا ما لم ينطق به قط إلا هالكِي، وهم الطبائعيون الذين يزعمون أن مدبر الحمل

(١) جعد قطط؛ شديد الجمودة.

(٢) سرر الصبي: ما تقطعه القابلة.

(٣) قال محققه: ورد في الحديث أقل الحيض وأكثره؛ روى الطبراني عن أبي أمامة عنه ﷺ وأقل الحيض ثلاث وأكثره عشرة؛ ورواه الربيع بن حبيب في مسنده عن أنس.

في الرَّحْمِ الكواكب السبعة؛ تأخذه شهراً شهراً، ويكون الشهر الرابع منها للشمس؛ ولذلك يتحرك ويضطرب، وإذا تكامل التداول في السبعة الأشهر بين الكواكب السبعة عاد في الشهر الثامن إلى زُحل، فَيُبْقِلُهُ بِبَرْدِهِ؛ فَيَا لَيْتَنِي تَمَكَّنْتُ مِنْ مَنَاطَرَتِهِمْ أَوْ مَقَاتِلَتِهِمْ! ما بال المرجع بعد تمام الدَّور يكون إلى زُحل دون غيره؟ الله أخبركم بهذا أم على الله تفترون؟! وإذا جاز أن يعود إلى اثنين منها لم لا يجوز أن يعود التدبير إلى ثلاث أو أربع، أو يعود إلى جميعها مرتين أو ثلاثاً؟! ما هذا التحكم بالظنون الباطلة على الأمور الباطنة!.

الثامنة - قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ يعني من النقصان والزيادة. ويقال: «بمقدار» قدر خروج الولد من بطن أمه، وقدر مكثه في بطنها إلى خروجه. وقال قتادة: في الرزق والأجل. والمقدار القدر؛ وعموم الآية يتناول كل ذلك، والله سبحانه أعلم.

قلت: هذه الآية تمدح الله سبحانه وتعالى بها بأنه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي هو عالم بما غاب عن الخلق، وبما شهدوه. فالغيب مصدر بمعنى الغائب. والشهادة مصدر بمعنى الشاهد؛ فنبه سبحانه على أنفراده بعلم الغيب، والإحاطة بالباطن الذي يخفى على الخلق، فلا يجوز أن يشاركه في ذلك أحد؛ فأما أهل الطب الذين يستدلون بالأمارات والعلامات فإن قطعوا بذلك فهو كفر، وإن قالوا إنها تجربة تُركوا وما هم عليه، ولم يقدح ذلك في الممدوح؛ فإن العادة يجوز أنكسارها، والعلم لا يجوز تبدله. و﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي كل شيء دونه. ﴿الْمُتَعَالِ﴾ عما يقول المشركون، المستعلي على كل شيء بقدرته وقهره؛ وقد ذكرناهما في شرح الأسماء مستوفى، والحمد لله.

[١٠] ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ إسرار القول: ما حدث به المرء نفسه، والجهر ما حدث به غيره؛ والمراد بذلك أن الله سبحانه يعلم ما أسرّه الإنسان من

خير وشر، كما يعلم ما جهر به من خير وشر. و «مِنْكُمْ» يحتمل أن يكون وصفاً لـ «سواء» التقدير: سِرٌّ مِّنْ أَسَرٍّ وَجَهْرٌ مِّنْ جَهْرٍ سواء منكم؛ ويجوز أن يتعلق «بسواء» على معنى: يستوي منكم، كقولك: مررت بزيد. ويجوز أن يكون على تقدير: سِرٌّ مِّنْ أَسَرٍّ منكم وَجَهْرٌ مِّنْ جَهْرٍ منكم. ويجوز أن يكون التقدير: ذو سواء منكم من أسر القول ومن جهر به، كما تقول: عدل زيد وعمرو أي ذوا عدل. وقيل: «سواء» أي مستوي، فلا يحتاج إلى تقدير حذف مضاف. ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي يستوي في علم الله السرّ والجهر، والظاهر في الطرقات، والمستخفي في الظلمات. وقال الأخفش وقُطِرْبُ: المستخفي بالليل الظاهر؛ ومنه خَفِيتُ الشيء وأخْفَيْتُهُ أي أظهرتُهُ؛ وأخفيت الشيء أي أستخرجته؛ ومنه قِيلَ لِلنَّبَّاشِ: المختفي. وقال امرؤ القيس:

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ^(١) كَأَنَّمَا خَفَاهُنَّ وَدَقٌّ مِنْ عَشِيٍّ مُّجَلَّبٍ

والسَّارِبِ المتواري، أي الداخل سرّياً؛ ومنه قولهم: أَنْسَرَبَ الوحشيُّ إذا دخل في كِنَاسِهِ، وقال ابن عباس: «مُسْتَخَفٍ» مستتر، «وَسَارِبٍ» ظاهر. مجاهد: «مُسْتَخَفٍ» بالمعاصي، «وَسَارِبٍ» ظاهر. وقيل: معنى «سَارِبٍ» ذاهب؛ [قال]^(٢) الكسائي: سَرَبَ يَسْرُبُ سَرَبًا وَسُرُوبًا إذا ذهب؛ وقال الشاعر^(٣):

وَكُلُّ أَنَاسٍ قَارَبُوا قَيْدَ فَخْلِهِمْ وَنَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فَهُوَ سَارِبٌ

أي ذاهب. وقال أبو رجاء: السَّارِبِ الذاهب على وجهه في الأرض؛ قال الشاعر^(٤):

أَنَّى سَرَبْتِ وَكُنْتِ غَيْرَ سُرُوبٍ

وقال القُتَيْبِيُّ: «سَارِبٌ بِالنَّهَارِ» أي منصرف في حوائجه بسرعة؛ من قولهم: أَنْسَرَبَ الماء. وقال الأصمعي: خَلَّ سِرْبُهُ أي طريقه.

(١) أنفاق (جمع نفق): وهو سرب في الأرض إلى موضع آخر، واستعاره امرؤ القيس لحجرة الفأرة والودق: المطر. وغيث مجلب: مصوَّت، ويروى مجلب (بالحاء).

(٢) من أودو.

(٣) هو الأخنس بن شهاب التغلبي ويريد أن الناس أقاموا في موضع واحد لا يجترئون على النقلة، وجسوا فحلهم عن أن يتقدم فتبعه إبلهم خوفاً أن يغار عليها، ونحن أعزاء خلعتنا قيد فحلنا ليلذهب حيث شاء.

(٤) هو قيس بن الخطيم، وتمايم البيت:

وتقرب الأحلام غير قريب

[١١] ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنِّ وَّالِ ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ أي الله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار؛ فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار. وقال: «مُعَقِّبَاتٌ» والملائكة ذُكران لأنه جمع مُعَقِّبَةٌ؛ يقال: مَلَكٌ مُّعَقِّبٌ، وملائكة مُعَقِّبَةٌ، ثم مُعَقِّبَاتٌ جمع الجمع. وقرأ بعضهم - «لَهُ مَعَاقِبُ» مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ. ومعاقب جمع مُعَقِّبٌ^(١)؛ وقيل للملائكة معقبة على لفظ الملائكة. وقيل: أثت لكثرة ذلك منهم؛ نحو نَسَابَةٍ وعلامة وراوية؛ قاله الجوهري وغيره. والتعقب العود بعد البدء؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَّى مُذَبِّرًا وَلَمْ يَعْصِ﴾^(٢) أي لم يرجع؛ وفي الحديث^(٣): «مُعَقِّبَاتٌ لَا يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ - أو - فاعِلُهُنَّ» فذكر التسبيح والتحميد والتكبير. قال أبو الهيثم: سُمِّين «مُعَقِّبَاتٌ» لأنهن عادت مرة بعد مرة، فعمل من عَمِلَ عَمَلًا ثم عاد إليه فقد عَقَّبَ. والمُعَقِّبَاتُ مِنَ الْإِبْلِ اللواتي يقمن عند أعجاز الإبل المعتركات على الحوض؛ فإذا أنصرفت ناقة دخلت مكانها أخرى. وقوله: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي المستخفي بالليل والشارب بالنهار. «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» اختلف في [هذا]^(٤) الحفظ؛ فقيل: يحتمل أن يكون توكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والهوام والأشياء المضرة، لطفاً منه به، فإذا جاء القَدَرُ خلّوا بينه وبينه؛ قاله ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما. قال أبو مجلز: جاء رجل من مرَاد^(٥) إلى علي فقال: احترس فإن ناساً من مُرَاد يريدون قتلك؛ فقال: إن مع كل

(١) قال الزمخشري: جمع معقب أو معقبة بتشديد القاف فيهما، والياء عوض من حذف إحدى القافين في التكسير. وقال ابن جني: إنه تكسير معقب كمطعم ومطاعيم، كأنه جمع على معاقبة، ثم حذفت الهاء من الجمع وعوضت الياء عنها؛ قال الألويسي: ولعله الأظهر. «روح المعاني».

(٢) راجع ١٣/١٦٠.

(٣) الحديث في الدعاء وهو بتمامه في «صحيح مسلم»: «معقبات لا يخيب قائلهن دبر كل صلاة مكتوبة ثلاث وثلاثون تسبيحة وثلاث وثلاثون تحميدة وأربع وثلاثون تكبيرة». سميت معقبات لأنها عادت مرة بعد مرة، أو لأنها تقال عقب كل صلاة.

(٤) من أحو و.

(٥) مراد (بالضم وآخره دال مهملة): قبيلة من قبائل العرب سميت باسم أبيها.

رجل ملكين يحفظانه ما لم يُقدَّر، فإذا جاء القَدَرُ خَلِيًّا بينه وبين قَدَرِ الله، وإن الأجل حصن حصينة؛ وعلى هذا، ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي بأمر الله وبإذنه؛ فـ «مِنْ» بمعنى الباء؛ وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض. وقيل: «مِنْ» بمعنى «عن»؛ أي يحفظونه عن أمر الله، وهذا قريب من الأول؛ أي حفظهم عن أمر الله لا من عند أنفسهم؛ وهذا قول الحسن؛ تقول: كسوته عن عُرَى ومن عُرَى؛ ومنه قوله عز وجل: ﴿أَطَعْتَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾^(١) أي عن جوع. وقيل: يحفظونه من ملائكة العذاب، حتى لا تحل به عقوبة؛ لأن الله لا يغير ما بقوم من التَّعْمَةِ والعافية حتى يُغَيِّرُوا ما بأنفسهم بالإصرار على الكفر، فإن أصرُّوا حان الأجل المضروب ونزلت بهم التَّعْمَةُ، وتزول عنهم الحَفَظَةُ المعقبات. وقيل: يحفظونه من الجن؛ قال كعب: لولا أن الله وكلَّ بكم ملائكة يَذُبُّونَ عنكم في مَطْعَمِكُمْ وَمَشْرَبِكُمْ وعوراتكم لَتَخَطَّفَتْكُمُ الْجِنُّ. وملائكة العذاب من أمر الله؛ وخصَّهم بأن قال: ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ لأنهم غير معائنين؛ كما قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(٢) أي ليس مما تشاهدونه أنتم. وقال الفراء: في الكلام تقديم وتأخير، تقديره، له معقبات من أمر الله من بين يديه ومن خلفه يحفظونه؛ وهو مروي عن مجاهد وأبن جريج والنَّخَعِي؛ وعلى أن ملائكة العذاب والجن من أمر الله لا تقديم فيه ولا تأخير. وقال ابن جريج: إن المعنى يحفظون عليه عمله، فحذف المضاف. وقال قتادة: يكتبون أفعاله وأفعاله. ويجوز إذا كانت المعقبات الملائكة أن تكون الهاء في «له» الله عز وجل، كما ذكرنا؛ ويجوز أن تكون للمستخفي، فهذا قول. وقيل: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعني به النبي ﷺ؛ أي أن الملائكة تحفظه من أعدائه؛ وقد جرى ذكر الرسول في قوله: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ أي سواء منكم من أسر القول ومن جهر به في أنه لا يضر النبي ﷺ، بل له معقبات يحفظونه عليه السلام؛ ويجوز أن يرجع هذا إلى جميع الرسل؛ لأنه قد قال: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي يحفظون الهادي من بين يديه ومن خلفه. وقول رابع - أن المراد بالآية السلاطين والأمراء الذين لهم قوم من بين أيديهم ومن خلفهم

(١) راجع ٢٠/٢٠٩.

(٢) راجع ١٠/٣٢٣.

يحفظونهم؛ فإذا جاء أمر الله لم يُعنوا عنهم من الله شيئاً؛ قاله ابن عباس وعِكرمة؛ وكذلك قال الضحاك: هو السلطان المتحرّس من أمر الله، المشرك. وقد قيل: إن في الكلام على هذا التأويل نفيّاً محذوفاً؛ تقديره: لا يحفظونه من أمر الله تعالى؛ ذكره الماوردي. قال المهدوي: ومن جعل المعقبات الحرس فالمعنى: يحفظونه من أمر الله على ظنه وزعمه. وقيل: سواء من أسرّ القول ومن جهر به فله حراس وأعوان يتعاقبون عليه فيحملونه على المعاصي، ويحفظونه من أن ينجع فيه وعظ؛ قال القشيري: وهذا لا يمنع الربّ من الإمهال إلى أن يحقّ العذاب؛ وهو إذا غيّر هذا العاصي ما بنفسه بطول الإصرار فيصير ذلك سبباً للعقوبة فكأنه الذي يحلّ العقوبة بنفسه؛ فقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي من أمثال أمر الله. وقال عبد الرحمن زيد: المعقبات ما يتعاقب من أمر الله تعالى وقضائه في عبادته؛ قال الماوردي: ومن قال بهذا القول ففي تأويل قوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وجهان: أحدهما - يحفظونه من الموت ما لم يأت أجل؛ قاله الضحاك. الثاني - يحفظونه من الجنّ والهوامّ المؤذية، ما لم يأت قدر؛ قاله أبو أمامة وكعب الأحبار - فإذا جاء المقدور خلّوا عنه؛ والصحيح أن المعقبات الملائكة، وبه قال الحسن ومجاهد وقتادة وأبن جريج؛ ورؤي عن ابن عباس، واختاره النحاس، وأحتج بقول النبي ﷺ: «يتعاقبون^(١) فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار» الحديث، رواه الأئمة. وروى الأئمة عن عمرو عن ابن عباس قرأ - «معقبات من بين يديه وركباء من خلفه [من أمر^(٢) الله] يحفظونه» فهذا قد بيّن المعنى. وقال كنانة العدوي: دخل عثمان رضي الله تعالى عنه على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أخبرني عن العبد كم معه من ملك؟ قال: «ملك عن يمينك يكتب الحسنات وآخر عن الشمال يكتب السيئات والذي على اليمين أمير على الذي على الشمال فإذا عملت حسنة كُتبت عشرأ وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين أكتب قال لا لعله يستغفر الله تعالى أو يتوب إليه فإذا قال ثلاثاً قال نعم أكتب أراحنا الله تعالى منه

(١) الحديث في ابن عطية: «يتعاقب فيكم ملائكة» والبحث في رواية القرطبي سنداً ومتناً في العسقلاني ٢٨/٢.

(٢) الزيادة من «تفسير الطبري».

فبئس القرين هو ما أقل مراقبته لله عز وجل وأقل استحياءه منا يقول الله تعالى ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(١) وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [وملك قابض على ناصيتك فإذا تواضعت لله رفعك وإذا تجبرت على الله قصمك]^(٢) وملكان على شفّتك وليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد وآله وملك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحية في فيك وملكان على عينيك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي يتداولون ملائكة الليل على ملائكة النهار لأن ملائكة الليل ليسوا بملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكاً على كل آدمي وإبليس مع ابن آدم بالنهار وولده بالليل. ذكره الثعلبي. قال الحسن: المعقبات أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر. واختيار الطبري: أن المعقبات الموابك بين أيدي الأمراء وخلفهم؛ والهاء في «له» لهن؛ على ما تقدم. وقال العلماء رضوان الله عليهم: إن الله سبحانه جعل أوامره على وجهين: أحدهما - قضى حلوله ووقوعه بصاحبه؛ فذلك لا يدفعه أحد ولا يغيره. والآخر - قضى مجيئه ولم يقض حلوله ووقوعه، بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة والحفظ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغير ما بقوم حتى يقع منهم تغير، إما منهم أو من الناظر لهم، أو ممن هو منهم بسبب؛ كما غير الله بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة بأنفسهم، إلى غير هذا من أمثلة الشريعة؛ فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير؛ كما قال ﷺ - وقد سئل أنهلك وفينا الصالحون؟ قال -: «نعم إذا كثُر الخُبث»^(٣). والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ أي هلاكاً وعذاباً، ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾. وقيل: إذا أراد بهم بلاء من أمراض وأسقام فلا مردّ لبلائه. وقيل: إذا أراد الله بقوم سوءاً أعمى

(١) راجع ١١/١٧.

(٢) الزيادة من «تفسير الطبري» وغيره.

(٣) المراد بالخُبث الفسق والفجور.

أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه؛ فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم، حتى يبحث أحدهم عن حتفة بكفه، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ أي ملجأ؛ وهو معنى قول السُّدي. وقيل: من ناصر يمنهم من عذابه؛ وقال الشاعر:

ما في السماء سوى الرحمن من والٍ

ووالٍ ووليّ كقادر وقدير.

- [١٢] ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾.
- [١٣] ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ أي بالمطر. «والسَّحاب» جمع، والواحدة سَحَابَة، وسُحُبٌ وسَحَابٌ في الجمع أيضاً. ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ قد مضى في «البقرة»^(١) القول في الرعد والبرق والصواعق فلا معنى للإعادة؛ والمراد بالآية بيان كمال قدرته؛ وأن تأخير العقوبة ليس عن عجز؛ أي يريكم البرق في السماء خوفاً للمسافر، فإنه يخاف أذاه لما يناله من المطر والهول والصواعق؛ قال الله تعالى: ﴿أَذَى مِنْ مَطَرٍ﴾^(٢) وطمعاً للحاضر أن يكون عقبه مطر وخضب؛ قال معناه قتادة ومجاهد وغيرهما. وقال الحسن: خوفاً من صواعق البرق، وطمعاً في غيئه المزيل للقطط. ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ قال مجاهد: أي بالماء. ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ من قال إن الرعد صوت السحاب فيجوز أن يُسَبِّحُ الرعد بدليل خلق الحياة فيه؛ ودليل صحة هذا القول قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ فلو كان الرعد ملكاً لدخل في جملة الملائكة. ومن قال إنه ملك قال: معنى. ﴿مِنْ خِيفَتِهِ﴾ من خيفة الله؛ قاله الطَّبْرِيُّ وغيره. قال ابن عباس: إن الملائكة

(١) راجع ٢١٦/١ فما بعد.

(٢) راجع ٣٧٢/٥.

خائفون من الله ليس كخوف ابن آدم؛ لا يعرف واحد منهم مَنْ على يمينه وَمَنْ على يساره، لا يشغلهم عن عبادة الله طعام ولا شراب؛ وعنه قال: الرَّعْدُ مَلَكٌ يَسُوقُ السَّحَابَ، وإن بخار الماء لفي نُفْرة إبهامه، وأنه مُوَكَّلٌ بالسَّحَابِ يصرفه حيث يُؤمر، وأنه يَسْبِجُ الله؛ فإذا سَبَّحَ الرَّعْدُ لم يبقَ مَلَكٌ في السَّمَاءِ إلا رفع صوته بالتسبيح، فعندها ينزل القطر، وعنه أيضاً كان إذا سمع صوت الرَّعْدِ قال: سبحان الذي سَبَّحْتَ له. وروى مالك عن عامر بن عبد الله عن أبيه أنه كان إذا سمع صوت الرَّعْدِ قال: سبحان الذي يُسَبِّحُ الرَّعْدَ بحمده والملائكة من خيفته، ثم يقول: إن هذا وعيد لأهل الأرض شديد. وقيل: إنه مَلَكٌ جالس على كرسي بين السماء والأرض، وعن يمينه سبعون ألف مَلَكٌ، وعن يساره مثل ذلك؛ فإذا أقبل على يمينه وسبح سَبَّحَ الجميع من خوف الله، وإذا أقبل على يساره وَسَبَّحَ سَبَّحَ الجميع من خوف الله. ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ ذكر الماوردي عن ابن عباس وعلي بن أبي طالب ومجاهد: نزلت في يهودي قال للنبي ﷺ: أخبرني! من أي شيء ربك، أم لؤلؤ أم من ياقوت؟ فجاءت صاعقة فأحرقت. وقيل: نزلت في بعض كفار العرب؛ قال الحسن: كان رجل من طواغيت العرب بعث النبي ﷺ نَفَرًا يدعونه إلى الله ورسوله والإسلام فقال لهم: أخبروني عن رب محمد ما هو، ومم هو، أم فضة أم من حديد أم نحاس؟ فاستعظم القوم مقالته؛ فقال أجيب محمدًا إلى رب لا يعرفه! فبعث النبي ﷺ إليه مراراً وهو يقول مثل هذا؛ فبينما التفر ينزعونه ويدعونه إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤوسهم، فرعدت وأبرقت ورمت بصاعقة، فأحرقت الكافر وهم جلوس؛ فرجعوا إلى النبي ﷺ فاستقبلهم بعض أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: أحترق صاحبكم، فقالوا: من أين علمتم؟ قالوا: أوحى الله إلى النبي ﷺ. ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾. ذكره الثعلبي عن الحسن؛ والقشيري بمعناه عن أنس، وسيأتي. وقيل: نزلت الآية في أربد بن ربيعة أخي لبید بن ربيعة، وفي عامر بن الطفيل؛ قال ابن عباس: أقبل عامر بن الطفيل وأزبد بن ربيعة

العامريان يريدان النبي ﷺ وهو في المسجد جالس في نفر من أصحابه، فدخلوا المسجد، فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور، وكان من أجمل الناس؛ فقال رجل من أصحاب النبي ﷺ: «هذا يا رسول الله عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك؛ فقال: «دَعَهُ فَإِنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يَهْدِهِ» فأقبل حتى قام عليه فقال: يا محمد مالي إن أسلمت؟ فقال: «لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين». قال: أتجعل لي الأمر من بعدك؟ قال: «ليس ذاك إليّ إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء». قال: أنتجعلني على الوَيْرِ وأنت على المَدَرِ؟ قال: «لا». قال: فما تجعل لي؟ قال: «أجعل لك أَعِنَّةَ الْخَيْلِ تغزو عليها في سبيل الله». قال: أو ليس لي أَعِنَّةُ الْخَيْلِ اليوم؟ قم معي أكلمك؛ فقام معه رسول الله ﷺ، وكان عامر أوماً إلى أَرَبْدَ: إذا رأيته أكلمه فذُرْ من خلفه وأضربه بالسيف؛ فجعل يخاصم النبي ﷺ ويراجعه؛ فاخترط أَرَبْدَ من سيفه شبراً ثم حبسه الله، فلم يقدر على سَلِّهِ، وَيَسْتِ يده على سيفه، وأرسل الله عليه صاعقة في يوم صائِفٍ صَاحٍ فأحرقته، وولّى عامر هارباً وقال: يا محمد! دعوت ربك على أَرَبْدَ حتى قتلتها؛ والله لأملائها عليك خيلاً جُرْداً، وفتياناً مُرْدَأَ؛ فقال عليه السلام: «يمنعك الله من ذلك وأبناء قَيْلَةٍ» يعني الأوس والخزرج؛ فنزل عامر بيت امرأة سَلُولِيَةٍ؛ وأصبح وهو يقول: والله لئن أَصْحَرَ^(١) لي محمدٌ وصاحبه - يريد مَلِكَ الموت - لأنفذتهما برمحي؛ فأرسل الله مَلَكاً فلطمه بجناحه فأذراه^(٢) في التراب؛ وخرجت على ركبته غُدَّةٌ عظيمة في الوقت؛ فعاد إلى بيت السَّلُولِيَةِ وهو يقول: غُدَّةٌ كغدة البعير، وموت في بيت سَلُولِيَةٍ؛ ثم ركب على فرسه فمات على ظهره. ورأى لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ أَخَاهُ أَرَبْدَ فقال:

يَا عَيْنُ هَلَّا بَكَتِ أَرَبْدَ إِذْ قُمْتُ سَنَا وَقَامَ الْخُصُومُ فِي كَبْدِ^(٣)
أَخْشَى عَلَى أَرَبْدَ الْحُثُوفِ وَلَا أَزْهَبُ نَوَاءَ السَّمَاءِ وَالْأَسَدِ
فَجَعَنِي الرَّعْدُ وَالصَّوَاعِقُ بِالْفَا رِسَ يَوْمَ الْكَسْرِ يَهَّةَ النَّجْدِ^(٤)

(١) أصحرج الرجل: إذا خرج إلى الصحراء.

(٢) أذراه: قلعه ورمى به.

(٣) كبد: شدة وعناء.

(٤) النجد: السريع الإجابة.

وفيه قال:

إِنَّ الرِّزْيَةَ لَا رِزْيَةَ مِثْلَهَا
يَا أَرْبَدَ الْخَيْرِ الْكَرِيمِ جُدُودُهُ
فَقَدَانِ كُلُّ أَحْيٍ كَضْوَاءِ الْكَوْكَبِ
أَفْرَدْتَنِي أَمْسِي بِقَرْنٍ أَغْضَبُ^(١)
وَأَسْلَمَ لِبَيْدٍ بَعْدَ ذَلِكَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مسألة - روى أبان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَأْخُذْ الصَّاعِقَةُ ذَاكِرًا لِلَّهِ عَزَّ جَلَّ». وقال أبو هريرة رضي الله عنه: كان النبي ﷺ إذا سمع صوت الرعد يقول: «سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة فعلي ديتة»^(٢). وذكر الخطيب من حديث سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده قال: كنا مع عمر في سفر فأصابنا رعد وبرد، فقال لنا كعب: من قال حين يسمع الرعد: سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثاً عوفي مما يكون في ذلك الرعد؛ ففعلنا فعوفينا؛ ثم لقيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإذا بردة^(٣) قد أصابت أنفه فأثرت به، فقلت: يا أمير المؤمنين ما هذا؟ قال بردة أصابت أنفي فأثرت، فقلت: إن كعباً حين سمع الرعد قال لنا: من قال حين يسمع الرعد سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثاً عوفي مما يكون في ذلك الرعد؛ فقلنا فعوفينا؛ فقال عمر: أفلا قلتم لنا حتى نقولها؛ وقد تقدّم هذا المعنى في «البقرة»^(٤).

قوله تعالى: «وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ» يعني جدال اليهودي حين سأل عن الله تعالى: من أي شيء هو؟ قاله مجاهد. وقال ابن جريج: جدال أربد فيما هم به من قتل النبي ﷺ. ويجوز أن يكون، «وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ» حالاً، ويجوز أن يكون منقطعاً. وروى أنس أن رسول الله ﷺ بعث إلى عظيم من المشركين يدعوه إلى الله عز وجل، فقال لرسول الله: أخبرني عن إلهك هذا! أهو من فضة أم من ذهب أم من نحاس؟

(١) قرن أعضب: مكسور.

(٢) في العبارة سقط والذي في تفسير البغوي: عن ابن عباس: من سمع صوت الرعد فقال: الحديث ثم قال: فإن أصابته صاعقة فعلى ديتة. محققه.

(٣) البرد (بالتحريك): حب الغمام.

(٤) راجع ٢١٦/١ فما بعد.

فاستعظم ذلك؛ فرجع إليه فأعلمه؛ فقال: «أرجع إليه فادعه» فرجع إليه وقد أصابته صاعقة، وعاد إلى رسول الله ﷺ وقد نزل: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾. ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ قال ابن الأعرابي: «المِحَال» المكر، والمكر من الله عز وجل التدبير بالحق، النحاس: المكر من الله إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر. وروى ابن اليزيدي عن أبي زيد ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ أي النقمة. وقال الأزهري: «المحال» أي القوة والشدة. والمحل: الشدة؛ الميم أصلية، وما حلت فلاناً محالاً أي قاوته حتى يتبين أينما أشد. وقال أبو عبيد: «المحال» العقوبة والمكروه. وقال ابن عرفة: «المحال» الجدال؛ يقال: ماحل عن أمره أي جادل. وقال القتيبي: أي شديد الكيد؛ وأصله من الحيلة، جعل ميمه كميم المكان؛ وأصله من الكون، ثم يقال: تمكنت. وقال الأزهري: غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة؛ بل هي أصلية، وإذا رأيت الحرف على مثال فعال أوله ميم مكسورة فهي أصلية؛ مثل: مهاد وملاك ومراس، وغير ذلك من الحروف. ومفعل إذا كانت من بنات الثلاثة فإنه يجيء بإظهار الواو^(١) مثل: مزود ومخول ومخور، وغيرها من الحروف؛ وقال^(٢): «قرأ الأعرج - «وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ» بفتح الميم؛ وجاء تفسيره على هذه القراءة عن ابن عباس أنه الحول؛ ذكر هذا كله أبو عبيد الهروي، إلا ما ذكرناه أولاً عن ابن الأعرابي؛ وأقاويل الصحابة والتابعين بمعناها، وهي ثمانية: أولها - شديد العداوة، قاله ابن عباس. وثانيها - شديد الحول، قاله ابن عباس أيضاً. وثالثها - شديد الأخذ، قاله علي بن أبي طالب. ورابعها - شديد الحقد، قاله ابن عباس. وخامسها - شديد القوة، قاله مجاهد. وسادسها - شديد الغضب، قاله وهب بن منبه. وسابعها - شديد الهلاك بالمحل، وهو القحط؛ قاله الحسن أيضاً. وثامنها - شديد الحيلة؛ قاله قتادة. وقال أبو عبيدة معمر: المحال والمماحلة المماكرة والمغالبة؛ وأنشد للأعشى:

فرع نَبْعٍ يَهْتَرُّ فِي غُصْنِ الْمَجْجِ لِ كَثِيرِ النَّدى شَدِيدِ الْمَحَالِ

(١) أي والياء في ذوات الياء كالمعير والمزيل. كما في «اللسان».

(٢) أي الأزهري كما في «اللسان» مادة «محل».

وقال آخر^(١):

وَلَيْسَ بَيْنَ أَقْوَامٍ فُكْلٌ أَعَدَّ لَهُ الشَّغَابُ وَالْمَحَالَا
وقال عبد المطلب:

لَا هُمْ إِنْ الْمَرْءَ يَمُ نَعَّ رَحْلَهُ فَاثْنَعُ حِلَالِكَ^(٢)
لَا يَغْلِبَنَّ صَليُّهُمْ وَمِحَا لَهُمْ عَذْوًا مِحَالِكَ

[١٤] ﴿لَمْ دَعُوهُ الْحَقُّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دَعَا الْكُفْرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَمْ دَعُوهُ الْحَقُّ﴾ أي الله دعوة الصديق. قال ابن عباس وقتادة وغيرهما: لا إله إلا الله. وقال الحسن: إن الله هو الحق، فدعاؤه دعوة الحق. وقيل: إن الإخلاص في الدعاء هو دعوة الحق؛ قاله بعض المتأخرين. وقيل: دعوة الحق دعاؤه عند الخوف؛ فإنه لا يدعى فيه إلا إياه، كما قال: ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾^(٣)؛ قال الماوردي: وهو أشبه بسياق الآية؛ لأنه قال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني الأصنام والأوثان. ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ أي لا يستجيبون لهم دعاء، ولا يسمعون لهم نداء. ﴿إِلَّا كَبَسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ ضرب الله عز وجل الماء مثلاً لئاسهم من الإجابة لدعائهم؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً بالقابض الماء باليد؛ قال:

فأصبحتُ فيما كان بيني وبينها من الودِّ مثل القابض الماء باليد

(١) هو ذو الرمة، والبيت من قصيدة يمدح بها بلال بن أبي بردة بن أبي موسى. واللبس: الاختلاط. والشغاب، قال الأصمعي: الشغزية ضرب من الحيلة في الصراع؛ وهو أن يدخل الرجل بين رجلين صاحبه فيصرعه؛ والمعنى: فكل رجل من القوم أعد له حجة وكيدا.

(٢) الحلال (بالكسر): القوم المقيمون المتجاورون؛ يريد بهم سكان الحرم. ويروى: غدوا: الغدو أصل الغدو وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك فحذفت لاه. «اللسان». ويروى: أبدا محالك. البحر.

(٣) راجع ٢٩١/١٠.

وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه: أحدها - أن الذي يدعو إليها من دون الله كالظمآن الذي يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً، لأن الماء لا يستجيب، وما الماء بباليغ إليه؛ قاله مجاهد. الثاني - أنه كالظمآن الذي يرى خياله في الماء وقد بسط كفه فيه ليلبغ فاه وما هو بباليغه، لكذب ظنه، وفساد توهمه؛ قاله ابن عباس. الثالث - أنه كباسط كفه إلى الماء ليقبض عليه فلا يجمد في كفه شيء منه. وزعم الفراء أن المراد بالماء ها هنا البثر؛ لأنها معدن للماء، وأن المثل كمن مد يده إلى البثر بغير رشاء؛ وشاهده قول الشاعر:

فإن الماء ماء أبي وجدي وبثري ذو حفرت وذو طويث

قال علي رضي الله عنه: هو كالعطشان على شفة البثر، فلا يبلع قعر البثر، ولا الماء يرتفع إليه؛ ومعنى «إِلَّا كَبَّاسِطٍ» إلا كاستجابة باسط كفيه «إِلَى الْمَاءِ» فالمصدر مضاف إلى الباسط، ثم حذف المضاف؛ وفاعل المصدر المضاف مراد في المعنى وهو الماء؛ والمعنى: إلا كإجابة باسط كفيه إلى الماء؛ واللام في قوله: «لِيَلْبِغَ فَاهُ» متعلقة بالباسط؛ وقوله: «وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ» كناية عن الماء؛ أي وما الماء بباليغ فاه. ويجوز أن يكون «هو» كناية عن الفم؛ أي ما الفم بباليغ الماء. ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال، لأنها شرك. وقيل: إلا في ضلال أي يضلّ عنهم ذلك الدعاء، فلا يجدون منه سبيلاً؛ كما قال: ﴿أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾^(١) وقال ابن عباس: أي أصوات الكافرين محجوبة عن الله فلا يسمع دعاءهم.

[١٥] ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلًّا لَهُمْ بِالْعُدُودِ وَالْأَصَالِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال الحسن وقتادة وغيرهما: المؤمن يسجد طوعاً، والكافر يسجد كرهاً بالسيف. وعن قتادة أيضاً: يسجد الكافر كارهاً حين لا ينفعه الإيمان. وقال الزجاج: سجود الكافر كرهاً ما فيه من الخضوع وأثر الصنعة.

وقال ابن زيد: «طَوْعاً» من دخل في الإسلام رغبة، و«كَرْهاً» من دخل فيه رهبة بالسيف. وقيل: «طَوْعاً» من طالت مدة إسلامه فألف السجود، و«كَرْهاً» من يكره نفسه لله تعالى: فالآية في المؤمنين، وعلى هذا يكون معنى «وَالْأَرْضِ» وبعض من في الأرض. قال القُشَيْرِي: وفي الآية مسلكان: أحدهما - أنها عامة والمراد بها التخصيص؛ فالمؤمن يسجد طوعاً، وبعض الكفار يسجدون إكراهاً وخوفاً كالمنافقين؛ فالآية محمولة على هؤلاء، ذكره الفراء. وقيل على هذا القول: الآية في المؤمنين؛ منهم من يسجد طوعاً لا يثقل عليه السجود، ومنهم من يثقل عليه؛ لأن التزام التكليف مشقة، ولكنهم يتحملون المشقة إخلاصاً وإيماناً، إلى أن يألفوا الحق ويمُرنوا عليه. والمسلك الثاني - وهو الصحيح - إجراء الآية على التعميم؛ وعلى هذا طريقان: أحدهما - أن المؤمن يسجد طوعاً، وأما الكافر فمأمور بالسجود مؤاخذه به. والثاني - وهو الحق - أن المؤمن يسجد ببدنه طوعاً، وكل مخلوق من المؤمن والكافر يسجد من حيث إنه مخلوق، يسجد دلالة وحاجة إلى الصانع؛ وهذا كقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾^(١) وهو تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة. ﴿وَزَلَّالُتْهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي ظلال الخلق ساجدة لله تعالى بالغدو والآصال؛ لأنها تبين في هذين الوقتين، وتميل من ناحية إلى ناحية؛ وذلك تصريح الله إياها على ما يشاء؛ وهو كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ قاله ابن عباس وغيره. وقال مجاهد: ظل المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع؛ وظل الكافر يسجد كرهاً وهو كاره. وقال ابن الأنباري: يجعل للظلال عقول تسجد بها وتخضع بها، كما جعل للجبال أفهام حتى خاطبت وخوطبت. قال القُشَيْرِي: في هذا نظر؛ لأن الجبل عين، فيمكن أن يكون له عقل بشرط تقدير الحياة، وأما الظلال فآثار وأعراض، ولا يتصور تقدير الحياة لها، والسجود بمعنى الميل؛ فسجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب؛ يقال: سجدت النخلة أي مالت. و«الآصال» جمع أُصْل، والأصل جمع أصيل؛ وهو ما بين العصر إلى الغروب، ثم أصائل جمع الجمع؛ قال أبو ذؤيب الهذلي:

لَعَمْرِي لَأَنْتَ الْبَيْتُ أَكْرَمُ أَهْلُهُ وَأَقْعَدُ فِي أَفْيَائِهِ بِالْأَصَائِلِ

و «ظِلَالُهُمْ» يجوز أن يكون معطوفاً على «مَنْ» ويجوز أن يكون أرتفع بالابتداء والخبر محذوف ؛ التقدير: وظلالهم سُجَّدٌ بِالْغَدْوِ وَالْأَصَالِ و «بِالْغَدْوِ» يجوز أن يكون مصدرًا، ويجوز أن يكون جمع غداة؛ يقوِّي كونه جمعاً مقابلة الجمع الذي هو الأصال به .

[١٦] ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ فَنَعَا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝﴾ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم أمره أن يقول [لهم] ^(١): هو الله إلزاماً للحجة إن لم يقولوا ذلك، وجعلوا مَنْ هو. ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ هذا يدل على أعترافهم بأن الله هو الخالق [وإلا] لم يكن للاحتجاج بقوله: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ معنى؛ دليله قوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ^(٢) أي فإذا أعتزتم فلم تعبدون غيره؟! وذلك الغير لا ينفع ولا يضر؛ وهو إلزام صحيح. ثم ضرب لهم مثلاً فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ فكذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر الحق، والمشرك الذي لا يبصر الحق. وقيل: الأعمى مثلاً لما عبده من دون الله، والبصير مثلاً الله تعالى: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ أي الشرك والإيمان. وقرأ ابن محيصن وأبو بكر والأعمش وحمزة والكسائي «يستوي» بالياء لتقدم الفعل؛ ولأن تأنيث «الظلمات» ليس بحقيقي. الباقيون بالتاء؛ واختاره أبو عبيد، قال: لأنه لم يحل بين المؤنث والفعل حائل. و «الظلمات والنور» مثل الإيمان والكفر؛ ونحن لا نقف على كيفية ذلك. ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ هذا من تمام الاحتجاج؛ أي خلق غير الله مثل

(١) من أو ووحـ.

(٢) راجع ٢٥٨/١٥.

خلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم. ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي قل لهم يا محمد: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فلزم لذلك أن يعبد كل شيء. والآية ردّ على المشركين والقدرية الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله. ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ قبل كل شيء. ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب لكل شيء، الذي يغلب في مراده كل مريد. قال القشيري أبو نصر: ولا يبعد أن تكون الآية واردة فيمن لا يعترف بالصانع؛ أي سلّمهم عن خالق السموات والأرض، فإنه يسهل تقرير الحجة فيه عليهم، ويقرب الأمر من الضرورة؛ فإن عجز الجماد وعجز كل مخلوق عن خلق السموات والأرض معلوم؛ وإذا تقرّر هذا وبأن الصانع هو الله فكيف يجوز اعتداد الشريك له؟! وبين في أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعان لاشتبه الخلق، ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك، فبم يعلم أن الفعل من اثنين!؟.

[١٧] ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرَدٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ۞ .

[١٨] ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْخُسْفَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَفِيهَا يَلْمَهُ ۖ ﴿١٨﴾ ۞ .

[١٩] ﴿ أَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أُولَٰئِكَ ۖ ﴿١٩﴾ ۞ .

قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ ضرب مثلاً للحق والباطل؛ فشبه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء، فإنه يضمحل ويعلق بجنبات الأودية، وتدفعه الرياح؛ فكذلك يذهب الكفر ويضمحل، على ما نبّيته. قال مجاهد:

﴿فَسَأَلَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ قال: بقدر ملئها. وقال ابن جُرَيْج: بقدر صغرها وكبرها. وقرأ الأشهب العُقَيْلي والحسن «بِقَدَرِهَا» بسكون الدال، والمعنى واحد. وقيل: معناها بما قدر لها. والأودية جمع الوادي؛ وسُمِّي وادياً لخروجه وسيلانه؛ فالوادي على هذا اسم للماء السائل. وقال أبو علي: ﴿فَسَأَلَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ توسع؛ أي سال ماؤها فحذف، قال: ومعنى «بِقَدَرِهَا» بقدر مياهاها؛ لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها. ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ أي طالعاً عالياً مرتفعاً فوق الماء، وتم الكلام؛ قاله مجاهد. ثم قال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُون عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ وهو المثل الثاني. ﴿أَتَيْغَاءَ حَلِيَّةٍ﴾ أي حلية الذهب والفضة. ﴿أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ قال مجاهد: الحديد والنحاس والرصاص. وقوله: ﴿زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ أي يعلو هذه الأشياء زبد كما يعلو السيل؛ وإنما احتمل السيل الزبد لأن الماء خالطه تراب الأرض فصار ذلك زبداً، كذلك ما يوقد عليه في النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما يَنْبُثُ فِي الْأَرْضِ من المعادن فقد خالطه التراب؛ فإنما يوقد عليه ليزوب فيزايه تراب الأرض. وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ قال مجاهد: جموداً. وقال أبو عبيدة قال أبو عمرو بن العلاء: أَجْفَأَتِ الْقِدْرُ إِذَا غَلَّتْ حَتَّى يَنْصَبَ^(١) زَبْدُهَا، وإذا جَمَدَ في أسفلها. والجُفَاءُ ما أجفاه الوادي أي رمى به. وحكى أبو عبيدة أنه سمع رُوْبَةَ يقرأ «جُفَالاً» قال أبو عبيدة: يقال أَجْفَلَتِ الْقِدْرُ إِذَا قَذَفَتْ بِزَبْدِهَا، وأجفلت الريح السحاب إذا قطعتة. ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ قال مجاهد: هو الماء الخالص الصّافي. وقيل: الماء وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص؛ وهو أن المثلين ضربهما الله للحق في ثباته، والباطل في اضمحلاله؛ فالباطل وإن علا في بعض الأحوال فإنه يَمْضَحَلُّ كاضمحلال الزبد والخَبث. وقيل: المراد مَثَلٌ ضربه الله للقرآن وما يدخل منه القلوب؛ فَشَبَّهَ الْقُرْآنَ بِالْمَطَرِ لِعُمُومِ خَيْرِهِ وَبَقَاءِ نَفْعِهِ، وَشَبَّهَ الْقُلُوبَ بِالْأَوْدِيَةِ، يَدْخُلُ فِيهَا مِنَ الْقُرْآنِ مِثْلُ مَا يَدْخُلُ فِي الْأَوْدِيَةِ بِحَسَبِ سَعَتِهَا وَضَيْقِهَا. قال ابن عباس: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ قال: قرآنًا؛ ﴿فَسَأَلَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ قال: الأودية قلوب العباد. قال صاحب

(١) في زوى: ينضب. بالمعجمة.

«سوق العروس»^(١) إن صحَّ هذا التفسير فالمعنى فيه أن الله سبحانه مثل القرآن بالماء . ومثل القلوب بالأودية، ومثل المُخَكَّم بالصافي، ومثل المتشابه بالزبد . وقيل : الزبد مخايل النفس وغوائل الشك ترتفع من حيث ما فيها فتضطرب من سلطان تلّعها، كما أن ماء السيل يجري صافياً فيرفع ما يجد في الوادي باقياً، وأما حلية الذهب والفضة فمثل الأحوال السنية . والأخلاق الزكية ؛ التي بها جمال الرجال، وقوام صالح الأعمال، كما أن من الذهب والفضة زينة النساء، وبهما قيمة الأشياء . وقرأ حميد وابن محيصن ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي وحفص «يُوقِدُونَ» بالياء واختاره أبو عبيد؛ لقوله : «يَنْفَعُ النَّاسَ» فأخبر، ولا مخاطبة ها هنا . الباقون بالتاء لقوله في أول الكلام : «أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ» الآية . وقوله : «فِي النَّارِ» متعلق بمحذوف، وهو في موضع الحال، وذو الحال الهاء التي في «عَلَيْهِ» التقدير : ومما توقدون عليه ثابتاً في النار أو كائناً . وفي قوله : «فِي النَّارِ» ضمير مرفوع يعود إلى الهاء التي هي أسم ذي الحال ولا يستقيم أن يتعلق «فِي النَّارِ» بـ «يوقدون» من حيث لا يستقيم أوقدت عليه في النار؛ لأن الموقد عليه يكون في النار، فيصير قوله : «فِي النَّارِ» غير مفيد . وقوله : «أَتَتَغَاءِ حَلِيَّةٌ» مفعول له . «زَبَدٌ مِثْلُهُ» ابتداء وخبر؛ أي زبد مثل زبد السيل . وقيل : إن خبر «زبد» قوله : «فِي النَّارِ» الكسائي : «زَبَدٌ» ابتداء، و «مِثْلُهُ» نعت له، والخبر في الجملة التي قبله، وهو «مِمَّا يُوقِدُونَ» . «كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ» أي كما بين لكم هذه الأمثال فكذلك يضربها بآيات . تم الكلام، ثم قال : «لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ» أي أجابوا؛ واستجاب بمعنى أجاب؛ قال^(٢) :

فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ

وقد تقدم؛ أي أجاب إلى ما دعاه الله من التوحيد والنبوات . «الْحُسْنَى» لأنها في نهاية الحسن . وقيل : من الحسنى النصر في الدنيا، والنعيم المقيم غداً . «وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ»

(١) هو : أبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبري، نزيل مكة المكرمة، المتوفى بها سنة ٤٧٨ وكتابه «سوق العروس» في علم القراءات . («كشف الظنون»).

(٢) هو : كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه أبا المغوار، وصدر البيت : وداع دعا يا من يجيب إلى الندى .

أي لم يجيبوا إلى الإيمان به. ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي من الأموال. ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ ملك لهم. ﴿لَا فِتْنَدُوا بِهِ﴾ من عذاب يوم القيامة؛ نظيره في «آل عمران» ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾^(١)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ حسب ما تقدم بيانه هناك. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ أي لا يقبل لهم حسنة، ولا يتجاوز لهم عن سيئة. وقال فرقد السبخي^(٢) قال [لي]^(٣) إبراهيم التخعي: يا فرقد! أتدري ما سوء الحساب؟ قلت لا! قال أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يفقد منه شيء. ﴿وَمَا وَاهُمْ﴾ أي مسكنهم ومقامهم. ﴿جَهَنَّمَ وَيُسَّرَ الْمِهَادُ﴾ أي الفراش الذي مهدوا لأنفسهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر، وروى أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وأبي جهل لعنه الله. والمراد بالعمى عمى القلب، والجاهل بالدين أعمى القلب. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

[٢٠] ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ هذا من صفة ذوي الألباب، أي إنما يتذكر أولو الألباب الموفون بعهد الله. والعهد أسم للجنس؛ أي بجميع عهود الله، وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عبده؛ ويدخل في هذه الألفاظ التزام جميع الفروض، وتجنب جميع المعاصي. وقوله: ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ يحتمل أن يريد به جنس الميثاق، أي إذا عقدوا في طاعة الله عهداً لم ينقضوه. قال قتادة: تقدم الله إلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه في بضع وعشرين آية؛ ويحتمل أن يشير إلى ميثاق بعينه، وهو الذي أخذه

(١) راجع ٢١/٤ فما بعد. و ص ١٣١ فما بعد.

(٢) السبخي: (بفتحتين) نسبة إلى السبخة موضع بالبصرة.

(٣) من ي.

الله على عباده حين أخرجه من صلب أبيهم آدم . وقال القفال : هو ما ركب في عقولهم من دلائل التوحيد والنبوات .

الثانية - روى أبو داود وغيره عن عوف بن مالك قال : كنا عند رسول الله ﷺ سبعة أو ثمانية أو تسعة فقال : « ألا تباعون رسول الله ﷺ » وكنا حديث عهد ببيعة^(١) فقلنا : قد بايعناك [حتى قالها ثلاثاً ؛ فبسطنا أيدينا فبايعناه ، فقال قائل : يا رسول الله ! إنا قد بايعناك]^(٢) فعلى ماذا نبايعك ؟ قال : « أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وتصلّوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا - وأسرّ كلمة خفية - قال لا تسألوا الناس شيئاً . قال : ولقد كان بعض أولئك نفر يسقط سوطه فما يسأل أحداً أن يناوله إياه . قال ابن العربي : من أعظم الموائيق في الذكر ألا يسأل سواه ؛ فقد كان أبو حمزة الخراساني من كبار العباد سمع أن أناساً بايعوا رسول الله ﷺ ألا يسألوا أحداً شيئاً ، الحديث ؛ فقال أبو حمزة : ربّ ! إن هؤلاء عاهدوا نبيك إذ رأوه ، وأنا أعاهدك ألا أسأل أحداً شيئاً ؛ قال : فخرج حاجباً من الشام يريد مكة فبينما هو يمشي في الطريق من الليل إذ بقي عن أصحابه لعذر ثم أتبعهم ، فبينما هو يمشي إليهم إذ سقط في بئر على حاشية الطريق ؛ فلما حلّ في قعره قال : أستغيث لعل أحداً يسمعني . ثم قال : إن الذي عاهدته يراني ويسمعني ، والله ! لا تكلمت بحرف للبشر ، ثم لم يلبث إلا يسيراً إذ مرّ بذلك البئر نفر ، فلما رأوه على حاشية الطريق قالوا : إنه لينبغي سدّ هذا البئر ؛ ثم قطعوا خشباً ونصبوها على فم البئر وغطّوها بالتراب ؛ فلما رأى ذلك أبو حمزة قال : هذه مهلكة ، ثم أراد أن يستغيث بهم ، ثم قال : والله ! لا أخرج منها أبداً ، ثم رجع إلى نفسه فقال : أليس قد عاهدت من يراك ؟ فسكّ وتوكل ، ثم استند في قعر البئر مفكراً في أمره فإذا بالتراب يقع عليه ؛ والخشب يرفع عنه ، وسمع في أثناء ذلك من يقول : هات يدك ! قال : فأعطيته يدي فأقلّني في مرة واحدة إلى فم البئر ، فخرجت فلم أرَ أحداً ؛ فسمعت هاتفاً يقول : كيف رأيت ثمرة التوكل ؛ وأنشد :

(١) في و : بيعته .

(٢) الزيادة من كتب الحديث .

نَهَانِي حَيَاتِي مِنْكَ أَنْ أَكْشِفَ الْهَوَى فَأَغْنِيَنِي بِالْعِلْمِ مِنْكَ عَنِ الْكَشْفِ
تَلَطَّفْتَ فِي أَمْرِي فَأَبْدَيْتَ شَاهِدِي إِلَى غَائِبِي وَاللَّطْفُ يُدْرِكُ بِاللُّطْفِ
تَرَأَيْتَ لِي بِالْعِلْمِ حَتَّى كَأَنَّمَا تُخَبِّرُنِي بِالْغَيْبِ أَنَّكَ فِي كَفٍّ
أَرَانِي وَبِي مِنْ هَيْبَتِي لَكَ وَخُشَّةٌ فَتُرْسِنُنِي بِاللُّطْفِ مِنْكَ وَبِالْعَطْفِ
وَتُحْيِي مُجِبًّا أَنْتَ فِي الْحَبِّ حَقْفَةٌ وَذَا عَجَبٌ كَيْفَ الْحَيَاةُ مَعَ الْحَتْفِ

قال ابن العربي: هذا رجل عاهد الله فوجد الوفاء على التمام والكمال، فاقتدوا به إن شاء الله تهتدوا. قال أبو الفرج الجوزي: سكوت هذا الرجل في هذا المقام على التوكل بزعمه إعانة على نفسه، وذلك لا يحل؛ ولو فهم معنى التوكل لعلم أنه لا ينافي استغاثته في تلك الحالة؛ كما لم يخرج رسول الله ﷺ من التوكل بإخفائه الخروج من مكة، وأستجاره دليلاً، وأستكتمه ذلك الأمر، وأستتاره في الغار، وقوله لسُرَاقَة: «اخْفِ عَنَّا». فالتوكل الممدوح لا يُنال بفعل محظور؛ وسكوت هذا الواقع في البئر محظور عليه، وبيان ذلك أن الله تعالى قد خلق للآدمي آلة يدفع عنه بها الضرر، وآلة يجتلب بها النفع، فإذا عطّلها مدّعياً للتوكل كان ذلك جهلاً بالتوكل، وردّاً لحكمة التواضع؛ لأن التوكل إنما هو اعتماد القلب على الله تعالى، وليس من ضرورته قطع الأسباب؛ ولو أن إنساناً جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار؛ قاله سفيان الثوري وغيره، لأنه قد دلّ على طريق السلامة، فإذا تقاعد عنها أعان على نفسه. وقال أبو الفرج: ولا التفات إلى قول أبي حمزة: «فجاء أسد فأخرجني» فإنه إن صح ذلك فقد يقع مثله اتفاقاً، وقد يكون لطفاً من الله تعالى بالعبد الجاهل، ولا ينكر أن يكون الله تعالى لطف به، إنما ينكر فعله الذي هو كسبه، وهو إعانته على نفسه التي هي وديعة لله تعالى عنده، وقد أمره بحفظها.

[٢١] ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ

الْحِسَابِ ﴿١١﴾ ۞

﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ .

﴿٢٣﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ .

﴿٢٤﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ ظاهر في صلة الأرحام، وهو قول قتادة وأكثر المفسرين، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قيل: في قطع الرحم. وقيل: في جميع المعاصي. ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾. سوء الحساب الاستقصاء فيه والمناقشة؛ ومن نوقش الحساب عذب. وقال ابن عباس وسعيد بن جبیر: معنى. ﴿يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ﴾ الإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم. الحسن: هو صلة محمد ﷺ. ويحتمل رابعاً: أن يصلوا الإيمان بالعمل الصالح؛ ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ فيما أمرهم بوصله، ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ في تركه؛ والقول الأول يتناول هذه الأقوال كما ذكرنا، وبالله توفيقنا.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ قيل: «الَّذِينَ» مستأنف؛ لأن «صَبَرُوا» ماض فلا ينعطف على «يُوفُونَ». وقيل: هو من وصف من تقدم، ويجوز الوصف تارة بلفظ الماضي، وتارة بلفظ المستقبل؛ لأن المعنى من يفعل كذا فله كذا؛ ولما كان «الَّذِينَ» يتضمن الشرط [و] الماضي في الشرط كالمستقبل جاز ذلك؛ ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ ثم عطف عليه فقال: ﴿وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾ قال ابن زيد: صبروا على طاعة الله، وصبروا عن معصية الله. وقال عطاء: صبروا على الرزايا والمصائب، والحوادث والنوائب. وقال أبو عمران الجوني: صبروا على دينهم ابتغاء وجه الله. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أدوها بفروضها وخشوعها في مواقيتها. ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني الزكاة المفروضة؛ عن ابن عباس، وقد مضى القول في هذا في «البقرة»^(١) وغيرها. ﴿وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾ أي يدفعون بالعمل

الصالح السَّيِّء من الأعمال، قاله ابن عباس. أبْن زيد: يدفعون الشر بالخير. سعيد بن جبير: يدفعون المنكر بالمعروف. الضَّحَّاك: يدفعون الفحش بالسلام. جُوَيْر: يدفعون الظلم بالعفو. أبْن شجرة: يدفعون الذنب بالتوبة. القُتَيْبِي: يدفعون سفه الجاهل بالحلم؛ فالسَّفه السيئة، والحلم الحسنة، وقيل: إذا هموا بسيئة رجعوا عنها واستغفروا. وقيل: يدفعون الشرك بشهادة أن لا إله إلا الله؛ فهذه تسعة أقوال، معناها كلها متقارب، والأول يتناولها بالعموم؛ ونظيره: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾^(١) ومنه قوله عليه السلام لمعاذ: «وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ». قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي عاقبة الآخرة، وهي الجنة بدل النار، والدار غدا داران؛ الجنة للمطيع، والنار للعاصي؛ فلما ذكر وصف المطيعين فدارهم الجنة لا محالة. وقيل: عني بالدار دار الدنيا؛ أي لهم جزاء ما عملوا من الطاعات في دار الدنيا. قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي لهم جنات عدن؛ ف﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدل من «عُقْبَى» ويجوز أن تكون تفسيراً لـ «عُقْبَى الدَّارِ» أي لهم دخول جنات عدن؛ لأن «عُقْبَى الدَّارِ» حَدَثٌ و«جَنَّاتُ عَدْنٍ» عين، والحدث إنما يفسر بحدث مثله؛ فالمصدر المحذوف مضاف إلى المفعول. ويجوز أن يكون «جَنَّاتُ عَدْنٍ» خبر ابتداء محذوف. و«جَنَّاتُ عَدْنٍ» وسط الجنة وقَصَبَتِهَا، وسقفها عرش الرحمن؛ قاله القُشَيْرِيُّ أبو نصر عبد الرحيم^(٢). وفي صحيح البخاري: «إذا سألتُم الله فاسأَلُوهُ الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة» فيحتمل أن يكون «جنات» كذلك إن صحَّ فذلك^(٣) خبر. وقال عبد الله بن عمرو: إن في الجنة قصراً يقال له عَدْنٌ، حوله البرُّوجُ والمروج؛ فيه ألف باب، على كل باب خمسة آلاف حَبْرَةٍ^(٤) لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد. و«عدن» مأخوذ من عَدَنَ بالمكان إذا أقام فيه؛ على ما يأتي بيانه في سورة «الكهف»^(٥) إن شاء الله تعالى. ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ يجوز أن

(١) راجع ص ١١٠ من هذا الجزء. (٢) في الأصل المطبوع عبد الملك ولعله تصحيف. مصححه.

(٣) في ي: خير.

(٤) الحبرة (بكسر الحاء المهملة وفتحها): ضروب من البرود اليمينية المخطط.

(٥) راجع ٣٩٥/١٠ فما بعد.

يكون معطوفاً على «أُولَئِكَ» المعنى: أولئك ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم لهم عقبى الدار. ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير المرفوع في «يَدْخُلُونَهَا» وحسن العطف لما حال الضمير المنصوب بينهما. ويجوز أن يكون المعنى: يدخلونها ويدخلها من صلح من آبائهم؛ أي من كان صالحاً، لا يدخلونها بالأنساب. ويجوز أن يكون موضع «مَنْ» نصباً على تقدير: يدخلونها مع من صلح من آبائهم، وإن لم يعمل مثل أعمالهم يلحقه الله بهم كرامة لهم. وقال ابن عباس: هذا الصلاح الإيمان بالله والرسول، ولو كان لهم مع الإيمان طاعات أخرى لدخلوها بطاعتهم لا على وجه التبعية. قال القشيري: وفي هذا نظر؛ لأنه لا بد من الإيمان. فالقول في اشتراط العمل الصالح كالقول في اشتراط الإيمان. فالأظهر أن هذا الصلاح في جملة الأعمال، والمعنى: أن النعمة غداً تأتيهم بأن جعلهم مجتمعين مع قراباتهم في الجنة، وإن دخلها كل إنسان بعمل نفسه؛ بل برحمة الله تعالى.

قوله تعالى: «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ» أي بالتحف والهدايا من عند الله تكملة لهم. «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» أي يقولون: سلام عليكم؛ فأضمر القول، أي قد سلمتم من الآفات والمحن. وقيل: هو دعاء لهم بدوام السلامة، وإن كانوا سالمين، أي سلمكم الله، فهو خبر معناه الدعاء؛ ويتضمن الاعتراف بالعبودية. «بِمَا صَبَرْتُمْ» أي بصبركم؛ فـ«بِمَا» مع الفعل بمعنى المصدر، والباء في «بِمَا» متعلقة بمعنى «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» ويجوز أن تتعلق بمحذوف؛ أي هذه الكرامة بصبركم، أي على أمر الله تعالى ونهيه؛ قاله سعيد بن جبّير. وقيل: على الفقر في الدنيا؛ قاله أبو عمران الجوني. وقيل: على الجهاد في سبيل الله؛ كما روي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون من يدخل الجنة من خلق الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: «المجاهدون الذين تُسَدُّ بهم الثغور وتُتَقَى بهم المكاره فيموت أحدهم وحاجته في نفسه لا يستطيع لها قضاء فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار». وقال محمد بن إبراهيم: كان النبي ﷺ يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنعم

عقبى الدار» وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان؛ وذكره البيهقي عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يأتي الشهداء، فإذا أتى فُرْضَةً^(١) الشَّعْب يقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار». ثم كان أبو بكر بعد النبي ﷺ يفعله، وكان عمر بعد أبي بكر يفعله، وكان عثمان بعد عمر يفعله. وقال الحسن البصري رحمه الله: «بِمَا صَبَرْتُمْ» عن فضول الدنيا. وقيل: «بِمَا صَبَرْتُمْ» على ملازمة الطاعة، ومفارقة المعصية؛ قال معناه الفضيل بن عياض. ابن زيد: «بِمَا صَبَرْتُمْ» عما تحبونه إذا فقدتموه. ويحتمل سابعاً - «بِمَا صَبَرْتُمْ» عن اتباع الشهوات. وعن عبد الله بن سلام وعلي بن الحسين رضي الله عنهما^(٢) [قالا]: إذا كان يوم القيامة ينادي منادٍ ليقم أهل الصبر؛ فيقوم ناس من الناس فيقال لهم: أنطلقوا إلى الجنة فتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة؛ قالوا: قبل الحساب؟ قالوا نعم! فيقولون: من أنتم فيقولون: نحن أهل الصبر، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا أنفسنا على طاعة الله، وصبرناها عن معاصي الله وصبرناها على البلاء والمحن في الدنيا. قال علي بن الحسين: فتقول لهم الملائكة: أدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين. وقال ابن سلام: فتقول لهم الملائكة: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ». «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» أي نعم عاقبة الدار التي كنتم فيها؛ عملتم فيها ما أعقبكم هذا الذي أنتم فيه؛ فالعقبى على هذا أسم، و«الدار» هي الدنيا. وقال أبو عمران الجوني: «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» الجنة عن النار. وعنه: «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» الجنة عن الدنيا.

[٢٥] ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۖ﴾

[٢٦] ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ۖ﴾

(١) فُرْضة الشعب: فوته. والشعب: ما انفرج بين جبلين. والشهداء كانوا بجبل أحد.

(٢) في الأصل: «أنه قال».

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ لما ذكر الموفين بعهده، والمواصلين لأمره، وذكر ما لهم ذكر عكسهم. نقض الميثاق: ترك أمره. وقيل: إهمال عقولهم، فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ أي من الأرحام. والإيمان بجميع الأنبياء. ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي بالكفر وأرتكاب المعاصي ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي الطرد والإبعاد من الرحمة. ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي سوء المنقلب، وهو جهنم. وقال سعد بن أبي وقاص: والله الذي لا إله إلا هو! إنهم الحُرورية. قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ لما ذكر عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك بين أنه تعالى الذي يبسط الرزق ويقدر في الدنيا، لأنها دار امتحان؛ فبسط الرزق على الكافر لا يدل على كرامته، والتقتير على بعض المؤمنين لا يدل على إهانتهم. ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي يضيق؛ ومنه. ﴿وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ^(١) رِزْقُهُ﴾ أي ضيق. وقيل: «يقدر» يعطي بقدر الكفاية. ﴿وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني مشركي مكة؛ فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها، وجعلوا ما عند الله؛ وهو معطوف على ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾. وفي الآية تقديم وتأخير؛ التقدير: والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي في جنبها. ﴿إِلَّا مَتَاعٌ﴾ أي متاع من الأمتعة، كالقصة والسكرجة^(٢). وقال مجاهد: شيء قليل ذاهب؛ من مَتَعَ النهار إذا ارتفع، فلا بد له من زوال. ابن عباس: زَادَ كَزَادَ الرَّاعِي. وقيل: متاع الحياة الدنيا ما يُسْتَمْتَعُ بها منها. وقيل: ما يتزود منها إلى الآخرة، من التقوى والعمل الصالح، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ ثم أبتدا. ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسع ويضيق.

[٢٧] ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾.

[٢٨] ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

(١) راجع ١٨/١٧٠.

(٢) السكرجة: إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم، وهي فارسية.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ بين في مواضع أن اقتراح الآيات على الرسل جهل، بعد أن رأوا آية واحدة تدل على الصدق، والقائل عبد الله بن أبي أمية وأصحابه حين طالبوا النبي ﷺ بالآيات. ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي كما أضلكم بعد ما أنزل من الآيات وحرمكم الاستدلال بها يضلّكم عند نزول غيرها. ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي من رجع. والهاء في «إليه» للحق، أو للإسلام، أو لله عز وجل؛ على تقدير: ويهدي إلى دينه وطاعته من رجع إليه بقلبه. وقيل: هي للنبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ «الذين» في موضع نصب، لأنه مفعول؛ أي يهدي الله الذين آمنوا، وقيل بدل من قوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ فهو في محل نصب أيضاً. ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي تسكن وتستأنس بتوحيد الله فتطمئن؛ قال: أي وهم تطمئن قلوبهم على الدوام بذكر الله بالسنتهم؛ قاله قتادة: وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: بالقرآن. وقال سفيان بن عيينة: بأمره. مقاتل: بوعده. ابن عباس: بالحلف باسمه، أو تطمئن بذكر فضله وإنعامه؛ كما تؤجل بذكر عدله وأنتقامه وقضائه. وقيل: ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي يذكرون الله ويتأملون آياته فيعرفون كمال قدرته عن بصيرة. ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي قلوب المؤمنين. قال ابن عباس: هذا في الحلف؛ فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه. وقيل: ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي بطاعة الله. وقيل: بثواب الله. وقيل: بوعده الله. وقال مجاهد: هم أصحاب النبي ﷺ.

[٢٩] ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ مَثَابٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ﴾ ابتداء وخبره. وقيل: معناه لهم طوبى ف «طوبى» رفع بالابتداء، ويجوز أن يكون موضعه نصباً على تقدير: جعل.

لهم طُوبَى، ويعطف عليه «وَحُسْنُ مَأْبٍ» على الوجهين المذكورين، فترفع أو تنصب.
 وذكر عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرُ عن يحيى بن أبي كثير عن عمرو بن أبي يزيد البَكَّالِي
 عن عُثْبَةَ بن عَبْدِ السَّلَمِيِّ قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فسأله عن الجنة وذكر الحوض
 فقال: فيها فاكهة؟ قال: «نعم شجرة تدعى طوبى» قال: يا رسول الله! أي شجرة
 أرضنا تشبه؟ قال: «لا تشبه شيئاً من شجر أرضك أتيت الشام هناك شجرة تدعى
 الجوزة تنبت على ساق ويفترش أعلاها». قال: يا رسول الله! فما عظم أصلها!
 قال: لو أَرْتَحَلْتَ جَذْعَةَ من إبل أهلك ما أَحَطْتَ بأصلها حتى تنكسر تَرْقُوتُها
 هَرَمًا. وذكر الحديث، وقد كَتَبَنَاهُ بكمالهِ في أبواب الجنة من كتاب «التذكرة»،
 والحمد لله. وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا مَعْمَرُ عن الأشعث عن عبد الله عن
 شَهْرَبْنِ حَوْشَبٍ عن أبي هريرة قال: في الجنة شجرة يقال لها طوبى؛ يقول الله
 تعالى لها: تفتقي لعبدي عما شاء؛ فَتَفْتَقُ له عن فرس بسرجه ولجامه وهيئته كما
 شاء، وَتَفْتَقُ عن الراحلة برحله وزمامها وهيئتها كما شاء، وعن النجائب
 والثياب. وذكر ابن وهب من حديث شهر بن حوشب عن أبي أمامة الباهلي قال:
 «طُوبَى» شجرة في الجنة ليس منها دار إلا وفيها غصن منها، ولا طير حسن إلا
 هو فيها، ولا ثمرة إلا هي منها؛ وقد قيل: إن أصلها في قصر النبي ﷺ في الجنة،
 ثم تنقسم فروعها على منازل أهل الجنة، كما أنتشر منه العلم والإيمان على جميع
 أهل الدنيا. وقال ابن عباس: «طُوبَى لَهُمْ» فرح لهم وَقَرَّةٌ عين؛ وعنه أيضاً أن
 «طوبى» أسم الجنة بالحبشية؛ وقاله سعيد بن جبيرة. الربيع بن أنس: هو البستان
 بلغة الهند؛ قال القشيري: إن صح هذا فهو وفاق بين اللغتين. وقال قتادة:
 «طُوبَى لَهُمْ» حسنى لهم. عكرمة: نعمى لهم. إبراهيم النخعي: خير لهم؛ وعنه
 أيضاً كرامة من الله لهم. الضحاك: غبطة لهم. النحاس: وهذه الأقوال متقاربة؛ لأن
 طُوبَى فُعْلَى من الطَّيِّب؛ أي العيش الطَّيِّب لهم؛ وهذه الأشياء ترجع إلى الشيء
 الطَّيِّب. وقال الزجاج: طُوبَى فُعْلَى من الطَّيِّب، وهي الحالة المستطابة لهم؛ والأصل
 طُيْبَى، فصارت الياء واواً لسكونها وضم ما قبلها، كما قالوا: موسر وموقن.

قلت : والصحيح أنها شجرة ؛ للحديث المرفوع الذي ذكرناه ، وهو صحيح على ما ذكره السُّهَيْلِيُّ ؛ ذكره أبو عمر في التمهيد، ومنه نقلناه ؛ وذكره أيضاً الثعلبي في تفسيره ؛ وذكر أيضاً المهدوي والقشيري عن معاوية بن قُرَّة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « طوبى شجرة في الجنة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تُنبت الحلبي والحُلل وإن أغصانها لَتَرى من وراء سور الجنة » ومن أراد زيادة على هذه الأخبار فليطالع الثعلبي . وقال ابن عباس : « طوبى » شجرة في الجنة أصلها في دار علي ، وفي دار كل مؤمن منها غُصْن . وقال أبو جعفر محمد بن علي : سئل النبي ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ قال : « شجرة أصلها في داري وفروعها في الجنة » ثم سئل عنها مرة أخرى فقال : « شجرة أصلها في دار علي وفروعها في الجنة » . فقبل له : يا رسول الله ! سئلت عنها فقلت : « أصلها في داري وفروعها في الجنة » ثم سئلت عنها فقلت : « أصلها في دار علي وفروعها في الجنة » فقال النبي ﷺ : « إن داري ودار علي غدا في الجنة واحدة في مكان واحد » وعنه ﷺ : « هي شجرة أصلها في داري وما من دار من دوركم إلا مُدَلَّى فيها غُصْن منها » ﴿ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ آب إذا رجع . وقيل : تقدير الكلام الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ وعملوا الصالحات طوبى لهم .

[٣٠] ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَلْتَلَوْا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ أي أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء من قبلك ؛ قاله الحسن . وقيل : شبه الإنعام على من أرسل إليه محمد عليه السلام بالإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله . ﴿ لِّتَلْتَلَوْا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يعني القرآن . ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ قال مقاتل وأبن جريج : نزلت في صلح الحُدَيْبِيَّة حين أرادوا

أن يكتبوا كتاب الصُّلح، فقال النبي ﷺ لعلي: «أكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سُهَيْل بن عمرو والمشركون: ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة، يعنون مُسَيْلَمَةَ الكذاب؛ أكتب باسمك اللهم، وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون؛ فقال النبي ﷺ لعلي: «أكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» فقال مشركو قريش: لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك وصددناك لقد ظلمناك؛ ولكن أكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله؛ فقال أصحاب النبي ﷺ: دعنا نقاتلهم؛ فقال: «لا ولكن أكتب ما يريدون» فنزلت. وقال ابن عباس: نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ: «أَسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ»^(١) قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ فنزلت. ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: الذي أنكرتم. ﴿هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود سواه؛ هو واحد بذاته، وإن اختلفت أسماء صفاته. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وأعتمدت ووثقت. ﴿وَالَيْهِ مَتَابٌ﴾ أي مرجعي غدا، واليوم أيضاً عليه توكلت ووثقت، رضاً بقضائه، وتسليماً لأمره. وقيل: سمع أبو جهل رسول الله ﷺ يدعو في الحجر ويقول: «يا الله يا رحمن» فقال: كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين؛ فنزلت هذه الآية، ونزل. ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾^(٢).

[٣١] ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِيَ بِهِ الْمَوْتُ بَلَّ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِصِلِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ هذا متصل بقوله: ﴿لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّي﴾. وذلك أن نفراً من مشركي مكة فيهم أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية المخزوميان

(١) راجع ٣٤٢/١٠.

(٢) راجع ٦٤/١٣.

جلسوا خلف الكعبة، ثم أرسلوا إلى رسول الله ﷺ فأتاهم؛ فقال له عبد الله: إن سرّك أن نتبعك فسير لنا جبال مكة بالقرآن، فأذهبها عنا حتى تنفسح؛ فإنها أرض ضيقة، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً، حتى نغرس ونزرع؛ فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود حين سخر له الجبال تسير معه، وسخر لنا الريح فنركبها إلى الشام نقضي عليها ميرتنا وحوائجنا، ثم نرجع من يومنا؛ فقد كان سليمان سخرت له الريح كما زعمت؛ فلست بأهون على ربك من سليمان بن داود، وأخي لنا قُصياً^(١) جدك، أو من شئت أنت من موتانا نسأله؛ أحق ما تقول أنت أم باطل؟ فإن عيسى كان يحيي الموتى، ولست بأهون على الله منه؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ الآية؛ قال معناه الزبير بن العوام ومجاهد وقتادة والضحاك؛ والجواب محذوف تقديره: لكان هذا القرآن، لكن حذف إيجازاً، لما في ظاهر الكلام من الدلالة عليه؛ كما قال امرؤ القيس:

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَسَاقُطُ أَنْفُسًا

يعني لهان عليّ؛ هذا معنى قول قتادة؛ قال: لو فعل هذا قرآن قبل قرآنكم لفعله قرآنكم. وقيل: الجواب متقدم، وفي الكلام تقديم وتأخير؛ أي وهم يكفرون بالرحمن لو أنزلنا القرآن وفعلنا بهم ما اقترحوا. الفراء: يجوز أن يكون الجواب لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن. الزجاج: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا﴾ إلى قوله: ﴿الْمَوْتَى﴾ لما آمنوا، والجواب المضمّر هنا ما أظهر في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾^(٢). ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي هو المالك لجميع الأمور، الفاعل لما يشاء منها، فليس ما تلتمسونه مما يكون بالقرآن، إنما يكون بأمر الله.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْتَسِبِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال الفراء قال الكلبي: «ينتسب» بمعنى يعلم، لغة النخع؛ وحكاه القشيري عن ابن عباس؛ أي أفلم يعلموا؛ وقاله الجوهري في الصحاح

(١) هو قصي بن كلاب.

(٢) راجع ٦٦/٧.

وقيل: هو لغة هَوَازِن؛ أي أفلم يعلم؛ عن ابن عباس ومجاهد والحسن. وقال أبو عبيدة: أفلم يعلموا ويتبينوا، وأنشد في ذلك أبو عبيدة لمالك بن عوف النَّصْرِي^(١):

أَقُولُ لَهُمْ بِالشَّعْبِ إِذْ يَسِرُّونِي أَلَمْ تَنَاسُوا أَنِّي أَبْنُ فَارِسٍ زَهْدَمِ

يَسِرُّونِي مِنَ الْمَيْسِرِ، وقد تقدم في «البقرة»^(٢) ويروى يأسرونني من الأسر. وقال رَبَاحُ بْنُ عَدِيٍّ:

أَلَمْ يَنْتَسِ الْأَقْوَامُ أَنِّي [أَنَا] ابْنُهُ وَإِنْ كُنْتُ عَنْ أَرْضِ الْعَشِيرَةِ نَائِيًا

في كتاب الردّ «أني أنا ابنه» وكذا ذكره الغزنوي: ألم يعلم؛ والمعنى على هذا: أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً من غير أن يشاهدوا الآيات. وقيل: هو من اليأس المعروف؛ أي أفلم يئس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار، لعلمهم أن الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم؛ لأن المؤمنين تَمَنُّوا نزول الآيات طمعاً في إيمان الكفار. وقرأ عليّ وابن عباس: «أَفَلَمْ يَتَبَيَّنَ الَّذِينَ آمَنُوا» من البيان. قال الْقُشَيْرِيُّ: وقيل لابن عباس المكتوب «أَفَلَمْ يَنْتَسِ» قال: أظن الكاتب كتبها وهو ناعس؛ أي زاد بعض الحروف حتى صار «يئس». قال أبو بكر الأنباري: روي عن عكرمة عن ابن أبي نجيح أنه قرأ - «أفلم يتبين الذين آمنوا» وبها احتج من زعم أنه الصواب في التلاوة؛ وهو باطل عن ابن عباس، لأن مجاهداً وسعيد بن جبيرة حكيا الحرف عن ابن عباس، على ما هو في المصحف بقراءة أبي عمرو وروايته عن مجاهد وسعيد بن جبيرة عن ابن عباس؛ ثم إن معناه: أفلم يتبين؛ فإن كان مراد الله تحت اللفظة التي خالفوا بها الإجماع فقراءتنا تقع عليها، وتأتي بتأويلها، وإن أراد الله المعنى الآخر الذي اليأس فيه ليس من طريق العلم فقد سقط مما أوردوا؛

(١) ذكر في «لسان العرب» أن قاتل البيت هو سحيم بن وثيل اليربوعي؛ وذكر بعض العلماء أنه قال لولده جابر بن سحيم بدليل قوله فيه: «أني ابن فارس زهدم» وزهدم: فرس سحيم. وقوله: يسرونني من إيسار الجزور؛ أي يجتزرونني ويقشمونني؛ وذكر ذلك لأنه كان قد وقع عليه سباء فضربوا عليه بالميسر يتحاسبون على قسمة فدائه.

(٢) راجع ٥٣/٣.

(٣) من البحر لأبي حيان، وكتاب الرد.

وأما سقوطه يبطل القرآن ، ولزوم أصحابه البهتان . ﴿ أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ ﴾ « أَنْ » مخففة من الثقيلة ، أي أنه لو يشاء الله ﴿ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ وهو يؤدّ على القُدَرِية وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ أي داهية تفجؤهم بكفرهم وعتوهم ؛ ويقال : قرعه أمر إذا أصابه ، والجمع قوارع ؛ والأصل في القرع الضرب ؛ قال ^(١) :

أَفْنَى تِلَادِي وَمَا جَمَعْتُ مِنْ نَشَبٍ قَرَعُ الْقَوَاقِيزِ أَفْوَاهَ الْأَبَارِيقِ

أي لا يزال الكافرون تصيبهم داهية مهلكة من صاعقة كما أصاب أربد أو من قتل أو من أسر أو جذب ، أو غير ذلك من العذاب والبلاء ؛ كما نزل بالمستهزئين ، وهم رؤساء المشركين . وقال عكرمة عن ابن عباس : القارعة النكبة . وقال ابن عباس أيضاً وعكرمة : القارعة الطلائع والسرايا التي كان يُنفذها رسول الله ﷺ لهم . ﴿ أَوْ تَحُلْ ﴾ أي القارعة . ﴿ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ ﴾ قاله قتادة والحسن . وقال ابن عباس : أَوْ تَحُلْ أنت قريباً من دارهم . وقيل : نزلت الآية بالمدينة ؛ أي لا تزال تصيبهم القوارع فتتزل بساحتهم أو بالقرب منهم كقرى المدينة ومكة . ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ في فتح مكة ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقيل : نزلت بمكة ؛ أي تصيبهم القوارع ، وتخرج عنهم إلى المدينة يا محمد ، فتحل قريباً من دارهم ، أو تحل بهم محاصراً لهم ؛ وهذه المحاصرة لأهل الطائف ، ولقلاع خيبر ؛ ويأتي وعد الله بالإذن لك في قتالهم وقهرهم . وقال الحسن : وعد الله يوم القيامة .

[٣٢] ﴿ وَلَقَدْ أَسْهَرْنَا بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

(١) هو الأقيشر الأسدي ، وأسمه المغيرة بن عبد الله . والتلاد : المال القديم الموروث . والنشب : الضياع والبساتين وما جدهه بعمله . والقواقيز (جمع قاقوزة) وهي أوان يشرب بها الخمر .

[٣٣] ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظَاهِرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ .

[٣٤] ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْنَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ تقدم معنى الاستهزاء في «البقرة»^(١) ومعنى الإملاء في «آل عمران»^(٢) أي سخر بهم، وأزري عليهم؛ فأمهلت الكافرين مدة ليؤمن من كان في علمي أنه يؤمن منهم؛ فلما حق القضاء أخذتهم بالعقوبة. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي فكيف رأيت ما صنعت بهم، فكذلك أصنع بمشركي قومك.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ليس هذا القيام القيام الذي هو ضد القعود، بل هو بمعنى التولي لأمر الخلق؛ كما يقال: قام فلان بشغل كذا؛ فإنه قائم على كل نفس بما كسبت أي يقدرها على الكسب، ويخلقها ويرزقها ويحفظها ويجازيها على عملها؛ فالمعنى: أنه حافظ لا يغفل، والجواب محذوف؛ والمعنى: أفمن هو حافظ لا يغفل كمن يغفل. وقيل: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ﴾ أي عالم؛ قاله الأعمش. قال الشاعر:

فلولا رجال من قريش أعزّة سرقتهم ثياب البيت واللّه قائم

أي عالم؛ فالله عالم بكسب كل نفس. وقيل: المراد بذلك الملائكة الموكلون ببني آدم، عن الضحاك. ﴿وَجَعَلُوا﴾ حال؛ أي أو قد جعلوا، أو عطف على «استهزىء» أي استهزءوا وجعلوا؛ أي سموا ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ يعني أصناماً جعلوها آلهة. ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: «سَمُّوهُمْ» أي بينوا أسماءهم، على جهة التهديد؛ أي إنما يستمنون: اللات والعزى ومناة وهبل. ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ «أم» استفهام توبيخ، أي أنبئونه؛ وهو على التحقيق عطف على استفهام متقدم في المعنى؛ لأن قوله: «سَمُّوهُمْ» معناه: ألهم أسماء الخالقين. ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾؟ وقيل: المعنى قل لهم أنبئونا الله بباطن لا يعلمه. ﴿أَمْ يَظَاهِرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يعلمه؟ فإن قالوا: بباطن لا يعلمه أحوالوا، وإن قالوا:

بظاھر يعلمه فقل لهم: سموهم؛ فإذا سموهم اللَّاتُ وَالْعُزَّى فقل لهم: إن الله لا يعلم لنفسه شريكاً. وقيل: ﴿أَمْ تُتَّبِئُونَهُ﴾ عطف على قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ﴾ أي أفمن هو قائم، أم تتبئون الله بما لا يعلم؛ أي أنتم تدعون لله شريكاً، والله لا يعلم لنفسه شريكاً؛ أفتتبئون به شريك له في الأرض وهو لا يعلمه! وإنما خصّ الأرض بنفي الشريك عنها وإن لم يكن له شريك في غير الأرض لأنهم أدعوا له شركاء في الأرض. ومعنى ﴿أَمْ يَظَاهِرُونَ الْقَوْلَ﴾: الذي أنزل الله على أنبيائه. وقال قتادة: معناه بباطل من القول؛ ومنه قول الشاعر:

أَعْيَزْتَنَا أَلْبَانَهَا وَلُحُومَهَا وَذَلِكَ عَارٌ يَابِسَ رَيْطَةُ ظَاهِرِ

أي باطل. وقال الضحاك: بكذب من القول. ويحتمل خامساً^(١) - أن يكون الظاهر من القول حجة يظهرونها بقولهم؛ ويكون معنى الكلام: أنخبرونه بذلك مشاهدين، أم تقولون محتجين. ﴿بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ أي دع هذا بل زين للذين كفروا مكرهم؛ قيل: استدراك على هذا الوجه، أي ليس لله شريك، لكن زين للذين كفروا مكرهم. وقرأ ابن عباس ومجاهد - ﴿بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ مسمى الفاعل؛ وعلى قراءة الجماعة فالذي زين للكافرين مكرهم الله تعالى، وقيل: الشيطان. ويجوز أن يسمى الكفر مكرًا؛ لأن مكرهم بالرسول كان كفرًا. ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي صدّهم الله؛ وهي قراءة حمزة والكسائي. الباقي بالفتح؛ أي صدّوا غيرهم؛ واختاره أبو حاتم، اعتباراً بقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٢) وقوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٣) وقراءة الضم أيضاً حسنة في «زين» و«صدّوا» لأنه معلوم أن الله فاعل ذلك في مذهب أهل السنة؛ ففيه إثبات القدر، وهو اختيار أبي عبيد. وقرأ يحيى بن وثاب وعلقمة - «وَصَدُّوا» بكسر الصاد؛ وكذلك. ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا﴾^(٤) بكسر الراء أيضاً على ما لم يسم فاعله؛ وأصلها صدّوا ورددت، فلما أدغمت الدال الأولى في الثانية نقلت حركتها على ما قبلها فانكسر. ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ بخذلانه. ﴿فَمَا لَهُ مِنْ حَادٍ﴾ أي موقف؛ وفي هذا إثبات قراءة الكوفيين

(١) كذا في الأصول. ويبدو أن في العبارة نقصاً، ولعل الرابع ما في البحر: وقيل: أم متصلة والتقدير أم تبئونه بظاھر من القول لا حقيقة له.

(٢) راجع ٢٥/٨. (٣) راجع ٢٨٣/١٦. (٤) راجع ص ٢٢٣ من هذا الجزء.

ومن تابعهم؛ لقوله: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ فكذلك قوله: ﴿وَصَدُّوا﴾. ومعظم القراء يقفون على الدال من غير الياء؛ وكذلك «وال» و «واق»؛ لأنك تقول في الرجل: هذا قاضٍ ووالٍ وهادي، فتحذف الياء لسكونها والتقاءها مع التنوين. وقرأ «فَمَا لَهُ مِنْ هَادِي»، و «وَالِي» و «وَاقِي» بالياء؛ وهو على لغة من يقول: هذا داعي ووالي وواقي بالياء؛ لأن حذف الياء في حالة الوصل لالتقاءها مع التنوين، وقد أمنا هذا في الوقف؛ فردت الياء فصار هادي ووالي وواقي. وقال الخليل في نداء قاضٍ: يا قاضي بإثبات الياء؛ إذ لا تنوين مع النداء، كما لا تنوين في نحو الداعي والمتعالي.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي للمشركين الصادقين، بالقتل والسَّني والإسار، وغير ذلك من الأسقام والمصائب. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أي أشد؛ من قولك: شق عليّ كذاً يَشَقُّ. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ أي مانع يمنعهم من عذابه ولا دافع. و «من» زائدة.

[٣٥] ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ اختلف النحاة في رفع «مثل» فقال سيبويه: أرتفع بالابتداء والخبر محذوف؛ والتقدير: وفيما يتلى عليكم مثلُ الجنة. وقال الخليل: أرتفع بالابتداء وخبره «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» أي صفة الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار؛ كقولك: قولي يقوم زيد؛ فقولي مبتدأ، ويقوم زيد خبره؛ والمثل بمعنى الصفة موجود؛ قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾^(١) وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾^(٢) أي الصفة العليا؛ وأنكره أبو علي وقال: لم يسمع مثل بمعنى الصفة؛ إنما معناه الشبه؛ ألا تراه يجري مجراه في مواضعه ومتصرفاته، كقولهم: مررت برجل مثلك؛ كما تقول: مررت برجل شبيهك؛ قال: ويفسد أيضاً من جهة المعنى؛ لأن مثلاً

إذا كان معناه صفة كان تقدير الكلام: صفة الجنة التي فيها أنهار، وذلك غير مستقيم؛ لأن الأنهار في الجنة نفسها لا صفتها. وقال الزجاج: مثَّل الله عزَّ وجلَّ لنا ما غاب عنا بما نراه؛ والمعنى؛ مثَّلُ الجنة جَنَّةً تجري من تحتها الأنهار؛ وأنكره أبو علي فقال: لا يخلو المثل على قوله أن يكون الصفة أو الشبه، وفي كلا الوجهين لا يصح ما قاله؛ لأنه إذا كان بمعنى الصفة لم يصح، لأنك إذا قلت: صفة الجنة جَنَّة، فجعلت الجنة خبراً لم يستقم ذلك؛ لأن الجنة لا تكون الصفة، وكذلك أيضاً شبه الجنة جنة؛ ألا ترى أن الشبه عبارة عن المماثلة التي بين المتماثلين، وهو حدث؛ والجنة غير حَدَث؛ فلا يكون الأول الثاني. وقال الفراء: المثل مقحم للتأكيد؛ والمعنى: الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار؛ والعرب تفعل ذلك كثيراً بالمثل؛ كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١)؛ أي ليس هو كشيء^(٢). وقيل التقدير: صفة الجنة التي وعد المتقون صفة جنة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. وقيل معناه: شبه الجنة التي وعد المتقون في الحسن والنعمة والخلود كشبه النار في العذاب والشدة والخلود؛ قاله مقاتل. ﴿أَكُلُّهَا دَائِمٌ﴾ لا ينقطع؛ وفي الخبر: «إذا أخذت ثمرة عادت مكانها أخرى» وقد بيناه في «التذكرة». ﴿وَوَظَلُّهَا﴾ أي وظلها كذلك؛ فحذف؛ أي ثمرها لا ينقطع، وظلها لا يزول؛ وهذا رد على الجَهَنِمِية في زعمهم أن نعيم الجنة يزول ويفنى. ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ أي عاقبة أمر المكذبين وآخرتهم النار يدخلونها.

[٣٦] ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَخْرَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي بعض من أوتي الكتاب يفرح بالقرآن، كابن سلام وسلمان، والذين جاءوا من الحبشة؛ فاللفظ عام، والمراد الخصوص. وقال قتادة: هم أصحاب محمد ﷺ يفرحون بنور القرآن؛ وقاله مجاهد

(١) راجع ٨/١٦.

(٢) في ي: ليس كهو شيء.

وابن زيد. وعن مجاهد أيضاً أنهم مؤمنو أهل الكتاب. وقيل: هم جماعة أهل الكتاب من اليهود والنصارى يفرحون بنزول القرآن لتصديقه كتبهم. وقال أكثر العلماء: كان ذكر الرحمن في القرآن قليلاً في أول ما أنزل، فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة؛ فسألوا النبي ﷺ عن ذلك؛ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(١) فقالت قريش: ما بال محمد يدعو إلى إله واحد فأصبح اليوم يدعو لإلهين، الله والرحمن! والله ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون مُسَيِّلَةَ الكَذَاب؛ فنزلت: ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾^(٢) ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا هُمُ الْكِتَابُ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾. «وَمِنَ الْأَحْزَابِ» يعني مشركي مكة، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس. وقيل: هم العرب المتحزبون على النبي ﷺ. وقيل: ومن أعداء المسلمين من ينكر بعض ما في القرآن؛ لأن فيهم من كان يعترف ببعض الأنبياء، وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السموات والأرض. ﴿قُلِ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ قراءة الجماعة بالنصب عطفاً على «أعبد». وقرأ أبو خالد^(٣) بالرفع على الاستثناف أي أفرد بالعبادة وحده لا شريك له، وأتبرأ عن المشركين، ومن قال: المسيح ابن الله وعزير ابن الله، ومن اعتقد التشبيه كاليهود. ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو﴾ أي إلى عبادته أَدْعُو الناس. ﴿وَإِلَيْهِ مَابِ﴾ أي أرجع في أموري كلها.

[٣٧] ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي وكما أنزلنا عليك القرآن فأنكره بعض الأحزاب كذلك أنزلناه حكماً عربياً. وإنما وصفه بذلك لأنه أنزله على محمد ﷺ، وهو عربي، فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضاً. وقيل نظم الآية: وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكماً عربياً، أي بلسان العرب؛ ويريد بالحكم ما فيه

(١) راجع ٣٤٢/١٠.

(٢) راجع ٢٨٧/١١.

(٣) في حواوي: أبو خلود؛ وهو عتبة بن حماد الحكمي روى عن نافع. «غاية النهاية».

من الأحكام. وقيل: أراد بالحكم العربي القرآن كله؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم. ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي أهواء المشركين في عبادة ما دون الله، وفي التوجيه إلى غير الكعبة. ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أي ناصر ينصرك. ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يمنعك من عذابه؛ والخطاب للنبي ﷺ، والمراد الأمة.

[٣٨] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى - قيل: إن اليهود عابوا على النبي ﷺ الأزواج، وعيرته بذلك وقالوا: ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبياً لشغله أمر النبوة عن النساء؛ فأنزل الله هذه الآية، وذكرهم أمر داود وسليمان فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ أي جعلناهم بشراً يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا، وإنما التخصيص في الوحي.

الثانية - هذه الآية تدلّ على الترغيب في النكاح والحض عليه، وتنهى عن التَّبَتُّل، وهو ترك النكاح، وهذه سنة المرسلين كما نصّت عليه هذه الآية، والسنة واردة بمعناها؛ قال ﷺ: «تزوَّجوا فإنني مكاثِر بكم الأمم» الحديث. وقد تقدّم في «آل عمران»^(١) وقال: «من تزوج فقد استكمل نصف الدين فليتيق الله في النصف الثاني»^(٢). ومعنى ذلك أن النكاح يعفّ عن الزنى، والعفاف أحد الخُصْلَتَيْنِ اللّتين ضَمِنَ رسول الله ﷺ عليهما الجنة فقال: «من وقاه الله شر أثنين وَلَجَ الجنة ما بين لَحْيَيْهِ وما بين رجليه» خرجه الموطأ وغيره. وفي صحيح البخاري عن أنس قال: جاء ثلاثة رَهْط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ

(١) راجع ٧٢/٤ فما بعد.

(٢) روى ابن الجوزي في العلل «من تزوج فقد أحرز نصف دينه فليتيق الله في النصف الباقي» وراجع

الحديث بطرقه في ج ٢ «كشف الخفاء» ص ٢٣٩ ففيه بحث.

يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ! قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم؛ أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال الآخر: إني أصوم الدهر فلا أفطر. وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج؛ فجاء رسول الله ﷺ [إليهم] ^(١) فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم الله وأنقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني». أخرجه مسلم بمعناه؛ وهذا أبين وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: أراد عثمان أن يتبتل فنهاه النبي ﷺ؛ ولو أجاز له ذلك لاختصّينّا، وقد تقدّم في «آل عمران» ^(٢) الحَضُّ على طلب الولد والرّدّ على من جهل ذلك. وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول: إني لأتزوج المرأة وما لي فيها من حاجة، وأطوؤها وما أشتيها؛ قيل له: وما يحملك على ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال؛ حبي أن يخرج الله مِنِّي من يكأثر به النبي ﷺ النَّبِيِّينَ يوم القيامة؛ وإني سمعته يقول: «عليكم بالأبكار فإنهنّ أغذّب أفواهاً وأحسن أخلاقاً وأنتنّ أرحاماً وإني مكأثر بكم الأمم يوم القيامة» يعني بقوله: «أنتنّ أرحاماً» أَقْبَلُ للولد؛ ويقال للمرأة الكثيرة الولد ناتق؛ لأنها ترمي بالأولاد رميةً. وخرَجَ أبو داود عن مَعْقِل بن يَسَار قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وأنا لا تلد، أفأتزوجها؟ قال: «لا» ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال: «تزوجوا الودود الولود فإني مكأثر بكم الأمم». صححه أبو محمد عبد الحق وحسبك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ عاد الكلام إلى ما اقترحوا من الآيات - ما تقدّم ذكره في هذه السورة - فأنزل [الله] ^(٣) ذلك فيهم؛ وظاهر الكلام حَظَر ومعناه النفي؛ لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي لكل أمر قضاء الله كتاب عند الله؛ قاله الحسن. وقيل: فيه تقديم وتأخير، المعنى: لكل كتاب أجل؛ قاله الفراء

(١) من ي.

(٢) راجع ٧٢/٤، و ٢٦٠/٦ فما بعد.

(٣) من ع.

وَالضَّحَّاكُ؛ أي لكل أمر كتبه الله أجل مؤقت، ووقت معلوم؛ نظيره. ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾^(١)؛ بين أن المراد ليس على اقتراح الأمم في نزول العذاب، بل لكل أجل كتاب. وقيل: المعنى لكل مدة كتاب مكتوب، وأمر مقدر لا تقف عليه الملائكة. وذكر الترمذي الحكيم في «نوادير الأصول» عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال: لما أرتقى موسى صلوات الله عليه وسلامه طور سيناء رأى الجَبَّارُ في إصبعه خاتماً، فقال: يا موسى ما هذا؟ وهو أعلم به، قال: شيء من حُلِيِّ الرجال، قال: فهل عليه شيء من أسمائي مكتوب أو كلامي؟ قال: لا، قال: فاكتب عليه ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

[٣٩] ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ أي يمحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهله ويأتي به. «وَيُثَبِّتُ» ما يشاء؛ أي يؤخره إلى وقته؛ يقال: محوت الكتاب محواً، أي أذهبت أثره. «وَيُثَبِّتُ» أي ويثبت؛ كقوله: «وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ»^(٢) أي والذاكرات الله.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم «وَيُثَبِّتُ» بالتخفيف، وشدد الباقون؛ وهي قراءة ابن عباس، وأختيار أبي حاتم وأبي عبيد لكثرة من قرأ بها؛ لقوله: «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا»^(٣). وقال ابن عمر: سمعت النبي ﷺ يقول: «يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا السعادة والشقاوة والموت». وقال ابن عباس: يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا أشياء^(٤)؛ الخلق والخلق والأجل والرزق والسعادة والشقاوة؛ وعنه: هما كتابان سوى أم الكتاب، يمحو الله منهما ما يشاء ويثبت. «وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» الذي لا يتغير منه شيء. قال القشيري: وقيل السعادة والشقاوة والخلق والخلق والرزق لا تتغير؛ فالآية فيما عدا هذه الأشياء؛ وفي هذا القول نوع تحكم.

قلت: مثل هذا لا يدرك بالرأي والاجتهاد، وإنما يؤخذ توقيفاً، فإن صح فالقول به يجب ويوقف عنده، وإلا فتكون الآية عامة في جميع الأشياء، وهو الأظهر والله أعلم؛ وهذا

(١) راجع ١١/٧.

(٢) راجع ١٨٥/١٤.

(٣) راجع ص ٣٦٢ من هذا الجزء.

(٤) في أو: وإلا ستا.

يروى معناه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأبن مسعود وأبي وائل وكعب الأحبار وغيرهم، وهو قول الكلبي. وعن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها، وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة والذنب فامحني وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب. وقال ابن مسعود: اللهم إن كنت كتبتني في السعداء فأثبتني فيهم، وإن كنت كتبتني في الأشقياء فأمحني من الأشقياء وأثبتني في السعداء؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت؛ وعندك أم الكتاب. وكان أبو وائل يكثر أن يدعو: اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فأمح وأكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. وقال كعب لعمر بن الخطاب: لولا آية في كتاب الله لأنباتك بما هو كائن إلى يوم القيامة. ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾. وقال مالك بن دينار في المرأة التي دعا لها: اللهم إن كان في بطنها جارية فأبدلها غلاماً فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. وقد تقدّم في الصحيحين عن أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من سرّه أن يُبَسِّطَ له في رزقه ويُنْسَأَ له في أثره^(١) فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ». ومثله عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ» فذكره بلفظه سواء؛ وفيه تأويلان: أحدهما - معنوي، وهو ما يبقى بعده من الثناء الجميل والذكر الحسن، والأجر المتكرر، فكانه لم يمت. والآخر - يؤخر أجله المكتوب في اللوح المحفوظ؛ والذي في علم الله ثابت لا تبدل له، كما قال: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾. وقيل لابن عباس لما روى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أحب أن يمد الله في عمره وأجله ويبسط له في رزقه فليتبني الله وليصل رحمه» كيف يزداد في العمر والأجل؟! فقال: قال الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجْلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ^(٢)﴾. فالأجل الأول أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته، والأجل

(١) الأثر: الأجل. سمي به لأنه يتبع العمر. وأصله من أثر مشيه في الأرض فإن مات لا يبقى له أثر ولا يرى لأقدامه في الأرض أثر النهاية.

(٢) راجع ٣٨٧/٦.

الثاني - يعني المسمى عنده - من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البرزخ لا يعلمه إلا الله؛ فإذا اتقى العبد ربه ووصل رحمه زاده الله في أجل عمره الأول من أجل البرزخ ما شاء، وإذا عصى وقطع رحمه نقصه الله من أجل عمره في الدنيا ما شاء، فيزيده في أجل البرزخ؛ فإذا تحتم الأجل في علمه السابق أمتنع الزيادة والنقصان؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(١) فتوافق الخبر والآية؛ وهذه زيادة في نفس العمر وذات الأجل على ظاهر اللفظ، في اختيار حبر الأمة، والله أعلم. وقال مجاهد: يُحكم الله أمر السنّة في رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة؛ وقد مضى القول فيه. وقال الضحاك: يمحو الله ما يشاء من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب؛ وروى معناه أبو صالح عن ابن عباس. وقال الكلبي: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، ورواه عن النبي ﷺ. ثم سئل الكلبي عن هذه الآية فقال: يكتب القول كله، حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قولك: أكلت وشربت ودخلت وخرجت ونحوه، وهو صادق، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب. وقال قتادة وابن زيد وسعيد بن جبّير: يمحو الله ما يشاء من الفرائض والنوافل فينسخه ويبدله، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، وجملة الناسخ والمنسوخ عنده في أم الكتاب؛ ونحوه ذكره النحاس والمهدوي عن ابن عباس؛ قال النحاس: وحدثنا بكر بن سهل، قال حدثنا أبو صالح، عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ يقول: يبدل الله من القرآن ما يشاء فينسخه، ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ ما يشاء فلا يبدله، ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يقول: جملة ذلك عنده في أم الكتاب، الناسخ والمنسوخ. وقال سعيد بن جبّير أيضاً: يغفر ما يشاء - يعني - من ذنوب عباده، ويترك ما يشاء فلا يغفره. وقال عكرمة: يمحو ما يشاء - يعني بالتوبة - جميع الذنوب ويثبت بدل الذنوب حسنات [قال تعالى]^(٢): ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾^(٣) الآية. وقال

(١) راجع ٢٠١/٧.

(٢) الزيادة من «البحر المحيط».

(٣) راجع ٧٧/١٣.

الحسن: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من جاء أجله، ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ من لم يأت أجله. وقال الحسن: يمحو الآباء، ويثبت الأبناء. وعنه أيضاً: يُنسي الحفظة من الذنوب ولا يُنسي. وقال السدي: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني: القمر، ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ يعني: الشمس؛ بيانه قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾^(١) وقال الربيع بن أنس: هذا في الأرواح حالة النوم؛ يقبضها عند النوم، ثم إذا أراد موته فجأة أمسكه، ومن أراد بقاءه أثبتته وردّه إلى صاحبه؛ بيانه قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾^(٢) الآية. وقال علي بن أبي طالب يمحو الله ما يشاء من القرون، كقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾^(٣) ويثبت ما يشاء منها، كقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾^(٤) فيمحو قرناً، ويثبت قرناً. وقيل: هو الرجل يعمل الزمن الطويل بطاعة الله، ثم يعمل بمعصية الله فيموت على ضلاله؛ فهو الذي يمحو، والذي يثبت: الرجل يعمل بمعصية الله الزمان الطويل ثم يتوب، فيمحوه الله من ديوان السيئات، ويثبته في ديوان الحسنات؛ ذكره الثعلبي والماوردي عن ابن عباس. وقيل: يمحو الله ما يشاء - يعني الدنيا - ويثبت الآخرة. وقال قيس بن عباد في اليوم العاشر من رجب: هو اليوم الذي يمحو الله فيه ما يشاء، ويثبت فيه ما يشاء؛ وقد تقدّم عن مجاهد أن ذلك يكون في رمضان. وقال ابن عباس: إن لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام، من درة بيضاء، لها دفتان من ياقوتة حمراء، لله^(٥) فيه كل يوم ثلاثمائة وستون نظرة، يثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء. وروى أبو الدرداء عن النبي ﷺ قال: «إن الله سبحانه يفتح الذكر في ثلاث ساعات يبين من الليل فينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء». والعقيدة أنه لا تبديل لقضاء الله؛ وهذا المحو والإثبات مما سبق به القضاء، وقد تقدّم أن من القضاء ما يكون واقعاً محتوماً، وهو الثابت؛ ومنه ما يكون مصروفاً بأسباب، وهو الممحو، والله أعلم. الغزنوي: وعندي أن ما في اللوح خرج عن الغيب لإحاطة بعض الملائكة؛ فيحتمل التبديل؛ لأن إحاطة الخلق بجميع علم الله محال؛ وما في علمه من تقدير الأشياء لا يبدل. ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي أصل ما كتب من الآجال

(٢) راجع ٢٦٥/١٥ و ٢٢.

(١) راجع ٢٢٧/١٠.

(٤) من ي.

(٣) راجع ١٢٠/١٢ فما بعد.

وغيرها. وقيل: أم الكتاب اللوح المحفوظ الذي لا يبدل ولا يغير. وقد قيل: إنه يجري فيه التبديل. وقيل: إنما يجري في الجرائد الأخر. وسئل ابن عباس عن أم الكتاب فقال: علم الله ما هو خالق، وما خلقه عاملون؛ فقال لعلمه: كن كتاباً، ولا تبدل في علم الله، وعنه أنه الذِّكْر؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾^(١) وهذا يرجع معناه إلى الأول؛ وهو معنى قول كعب. قال كعب الأحبار: أم الكتاب علم الله تعالى بما خلق وبما هو خالق.

[٤٠] ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾.

[٤١] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ «ما» زائدة، والتقدير: وإن نرينك بعض الذي نعدهم، أي من العذاب لقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ أي إن أرينك بعض ما وعدناهم ﴿أَوْ نَتَوَقَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ فليس عليك إلا البلاغ؛ أي التبليغ؛ ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ أي الجزاء والعقوبة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني أهل مكة، ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أي نقصدها. ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ اختلف فيه؛ فقال ابن عباس ومجاهد: ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ موت علمائها وصلحائها. قال القشيري: وعلى هذا فالأطراف الأشراف؛ وقد قال ابن الأعرابي: الطَّرَف والطَّرْف الرجل الكريم؛ ولكن هذا القول بعيد، لأن مقصود الآية: أنا أريناهم النقصان في أمورهم، ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز؛ إلا أن يحمل قول ابن عباس على موت أحبار اليهود والنصارى. وقال مجاهد أيضاً

وقتادة والحسن: هو ما يغلب عليه المسلمون مما في أيدي المشركين؛ وروي ذلك عن ابن عباس، وعنه أيضاً هو خراب الأرض حتى يكون العمران في ناحية منها؛ وعن مجاهد: نقصانها خرابها وموت أهلها. وذكر وكيع بن الجراح عن طلحة بن عُمَيْر عن عطاء بن أبي رباح في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: ذهاب فقائها وخيار أهلها. قال أبو عمر بن عبد البر: قول عطاء في تأويل الآية حسن جداً؛ تلقاه أهل العلم بالقبول.

قلت: وحكاية المهدوي عن مجاهد وابن عمر، وهذا نص القول الأول نفسه؛ روى سفيان عن منصور عن مجاهد، ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: موت الفقهاء والعلماء؛ ومعروف في اللغة أن الطرف الكريم من كل شيء؛ وهذا خلاف ما أرتضاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم من قول ابن عباس. وقال عكرمة والشَّعْبِيُّ: هو النقصان وقبض الأنفس. قال أحدهما: ولو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حَشَكٌ^(١). وقال الآخر: لضاق عليك حَشٌّ تبرز فيه. قيل: المراد به هلاك من هلك من الأمم قبل قريش وهلاك أرضهم بعدهم؛ والمعنى: أو لم تر قريش هلاك من قبلهم، وخراب أرضهم بعدهم؟! أفلا يخافون أن يحلَّ بهم مثل ذلك؛ وروي ذلك أيضاً عن ابن عباس ومجاهد وأبن جُرَيْج. وعن ابن عباس أيضاً أنه نقص بركات الأرض وثمارها وأهلها. وقيل: [نقصها]^(٢) بِجُورٍ وَلَأَتْهَا.

قلت: وهذا صحيح معنى؛ فإن الجور والظلم يخرّب البلاد، بقتل أهلها وأنجلاتهم عنها، وترفع من الأرض البركة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْكُمُ لَا مَعْصِيَةَ لِحُكْمِهِ﴾ أي ليس يتعقب حكمه أحد بنقص ولا تغيير. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي الانتقام من الكافرين، سريع الثواب للمؤمن. وقيل: لا يحتاج في حسابه إلى روية قلب، ولا عقد بنان؛ حسب ما تقدّم في «البقرة»^(٣) بيانه

(١) الحش: موضع قضاء الحاجة.

(٢) من ي.

(٣) راجع ٤٣٤/٢ فما بعد.

[٤٢] ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعِلَّمُ الْكَفَرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

[٤٣] ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل مشركي مكة، مكروا بالرسول وكادوا لهم وكفروا بهم. ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي هو مخلوق له مكر الماكرين، فلا يضر إلا بإذنه. وقيل: فلله خير المكر؛ أي يجازيهم به. ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر، فيجازي عليه. ﴿وَسِعِلَّمُ الْكَافِرُ﴾ كذا قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو. الباقر: «الْكُفَّارُ» على الجمع. وقيل: عنى [به] ^(١) أبو جهل. ﴿لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي عاقبة دار الدنيا ثواباً وعقاباً، أو لمن الثواب والعقاب في الدار الآخرة؛ وهذا تهديد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا﴾ قال قتادة: هم مشركو العرب؛ أي لست بنبي ولا رسول، وإنما أنت متقول؛ أي لما لم يأتهم بما اقترحوا قالوا ذلك. ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد: ﴿كَفَى بِاللَّهِ﴾ أي كفى الله ﴿شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بصدقي وكذبكم. ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وهذا احتجاج على مشركي العرب لأنهم كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب - من آمن منهم - في التفسير. وقيل: كانت شهادتهم قاطعة لقول الخصوم؛ وهم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الداري والنجاشي وأصحابه؛ قاله قتادة وسعيد بن جبيرة. وروى الترمذي عن ابن أخي عبد الله بن سلام قال: لما أريد [قتل] عثمان جاء عبد الله بن سلام فقال له عثمان: ما جاء بك؟ قال: جئت في نصرتك؛ قال: أخرج إلى الناس فاطردهم عني، فإنك خارج خير لي من داخل؛ [قال] ^(١) فخرج عبد الله بن سلام إلى الناس فقال: أيها الناس! إنه كان أسمي في الجاهلية فلان ^(٢)، فسماني

رسول الله ﷺ عبد الله، ونزلت في آيات من كتاب الله؛ فنزلت في. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(١) ونزلت في. ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ الحديث. وقد كتبناه بكماله في كتاب «التذكرة». وقال فيه أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. وكان اسمه في الجاهلية حصين فسماه النبي ﷺ عبد الله. وقال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبيرة ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾؟ قال: هو عبد الله بن سلام.

قلت: وكيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية^(٢) وأبن سلام ما أسلم إلا بالمدينة؟! ذكره الثعلبي، وقال القشيري: وقال ابن جبيرة السورة مكية وأبن سلام أسلم بالمدينة بعد هذه السورة؛ فلا يجوز أن تحمل هذه الآية على أبن سلام؛ فمن عنده علم الكتاب جبريل؛ وهو قول أبن عباس. وقال الحسن ومجاهد والضحاك: هو الله تعالى؛ وكانوا يقرءون ﴿وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وينكرون على من يقول: هو عبد الله بن سلام وسلمان؛ لأنهم يرون أن السورة مكية، وهؤلاء أسلموا بالمدينة. ورؤي عن النبي ﷺ أنه قرأ ﴿وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وإن كان في الرواية ضعف، وروى ذلك سليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم عن أبيه عن النبي ﷺ؛ وروى محبوب عن إسماعيل بن محمد اليماني أنه قرأ كذلك - ﴿وَمِنْ عِنْدِهِ﴾ بكسر الميم والعين والذال «عِلْمُ الْكِتَابِ» بضم العين ورفع الكتاب. وقال عبد الله بن عطاء: قلت لأبي جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام فقال: إنما ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وكذلك قال محمد بن الحنفية. وقيل: جميع المؤمنين، والله أعلم. قال القاضي أبو بكر بن العربي: أما من قال إنه علي فعول على أحد وجهين: إما لأنه عنده أعلم المؤمنين وليس كذلك؛ بل أبو بكر وعمر وعثمان أعلم منه. ولقول النبي ﷺ. «أنا مدينة العلم وعلي بابها» وهو حديث باطل^(٣)؛ النبي ﷺ مدينة علم وأصحابه أبوابها؛ فمنهم الباب المنفصح، ومنهم المتوسط، على قدر منازلهم في العلوم. وأما من قال

(١) قيل: السورة مدنية إلا ﴿ولو أن قرآنا﴾ الآيتين. قاله قتادة. وفيها مدني كثير كقصة ابن الطفيل وأريد. ابن عطية.

(٢) في «كشف الخفاء» بحث قيم في هذا الحديث ٢٠٣/١ فما بعد. وجزم ابن تيمية بأنه من وضع الشيعة.

إنهم جميع المؤمنين فصدق؛ لأن كل مؤمن يعلم الكتاب، ويدرك وجه إعجازه، ويشهد للنبي ﷺ بصدقه.

قلت: فالكتاب على هذا هو القرآن. وأما من قال هو عبد الله بن سلام فعول على حديث الترمذي؛ وليس يمتنع أن ينزل في عبد الله بن سلام شيئاً ويتناول جميع المؤمنين لفظاً؛ ويعضده من النظام أن قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني قريشاً؛ فالذين عندهم علم الكتاب هم المؤمنون من اليهود والنصارى، الذين هم إلى معرفة النبوة والكتاب أقرب من عبدة الأوثان. قال النحاس: وقول من قال هو عبد الله بن سلام وغيره يحتمل أيضاً؛ لأن البراهين إذا صحت وعرفها من قرأ الكتب التي أنزلت قبل القرآن كان أمراً مؤكداً؛ والله أعلم بحقيقة ذلك.